T A I S S I E R K H A L A F

NOVEL

عصافير داروين

تيسير خلف

عصافير داروين / رواية عربيّة
تيسير خلف / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى، 2018
حقوق الطبع محفوظة ©

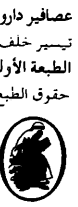

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 1107-2190، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
سمير سيّ ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **جوانا باروم** / الولايات المتّحدة الأمريكيّة
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديجو برس** / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-869-8

NOVEL

تيسير خلف

عصافير داروين

دعوة

حين كان البروفيسور فريدريك وارد بوتنام يتأمل بدهشة ممزوجة بالإعجاب ؛ المناقير المتباينة للعصافير الخمسة التي أرسلها صديقه البروفيسور جورج باور من أرخبيل غالاباغوس المقابل لسواحل الإكوادور . .

وبعد أن اختار لقفصها الخشبي الجميل مكاناً بارزاً قرب نافذة مكتبه الجديد في مبنى إدارة المعرض الكولومبي وسط شيكاغو . .

وقبل أن يخط رسالة شكر وامتنان لهذا الصديق الوفي ، السائر على خطى المعلم داروين الذي ألهمته هذه المناقير الغريبة نظرية النشوء والارتقاء ذات يوم . .

في هذا الوقت بالذات ، وصلت دعوة من الرئيس الأميركي بنيامين هاريسون إلى السلطان عبد الحميد خان ، للمشاركة في المعرض العالمي الذي سيفتتح في الأول من أيار ١٨٩٣ .

شعر السلطان بالكآبة ، وهو يستمع من كاتبه ثريا باشا إلى ترجمة الرسالة ، وأطرق ملياً قبل أن يقول بصوت جهوري رنَّان :

– اقبلوا الدعوة ، وانتظروا أوامري لتشكيل لجان التنفيذ!

انسحب ثريا باشا إلى الباب ؛ وهو يحني رأسه مرات عدة

للسلطان الغارق في بحر أفكاره ، وحين خرج من باب القاعة استعاد هيبته ولونه المشوب بالحمرة ، وقد بدأ السؤال يدور في رأسه من دون أن يهتدي إلى إجابة : لماذا اكتأب مولانا؟

في ذلك المساء غادر السلطان مكتبه مبكراً ، قبيل غروب الشمس بقليل ، وحين كان يعبر الردهة الطويلة العريضة باتجاه حديقة القصر ، حيث كان كبار الموظفين يقفون أمام مكاتبهم لتحيته ، أشار لثريا باشا بيده ، فتبعه وهو يوزع تقطيبة على باقي الكتّاب الشامتين .

كان معطف فرو السمور والعصا الصفراء بانتظار السلطان قبل خروجه إلى الحديقة ، وكان على الباشا أن يداري لسعات البرد الربيعية ببزته البيضاء الخفيفة ورباطة جأشه المعتادة .

قال السلطان ، وهو يسير باتجاه الجهة الجنوبية الشرقية من حديقة قصر «يلدز» المطلة على البوسفور :

- بماذا نشارك يا باشا؟

ازدرد ثريا ريقه مرات عدة قبل أن يردَّ :

- مولاي ، لدينا عواصم العالم القديم جميعها ، من المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى ، إلى دمشق عاصمة الأمويين ، إلى بغداد عاصمة العباسيين ، إلى الأستانة عاصمة سلاطيننا العظام الفاتحين .

قال السلطان بغضب هذه المرة ، وكأنه لم يسمع شيئاً :

- بماذا نشارك يا ثريا باشا؟

جحظت عينا الباشا ، وبدا الذهول على وجهه ، فهو لم ير السلطان غاضباً إلى هذا الحد من قبل .

– مولاي ، نحن الآن في النصف الأول من العام ١٨٩١ ، ولدينا أكثر من عامين للاستعداد و . . .

استدار السلطان قبل أن يكمل ثريا كلامه ، ومضى باتجاه الحرملك وهو يقول بحدة :

– استدع عزت باشا العربي غداً .

– أمر مولاي .

تسمّر الباشا في مكانه متناسياً النسمات الباردة حتى غاب السلطان عن ناظريه ، وحين هم بالمغادرة بدأ سؤال آخر يدور في رأسه : لماذا غضب مولانا؟

ظل السؤال يلح عليه طوال الليل وفي صباح اليوم التالي ، وبينما هو غارق في أفكاره وأسئلته ؛ سمع صوتاً جهورياً يقول له :

– ها قد حضرت في الموعد المحدد يا باشا!

لم ينتبه لوجود عزت العربي في مكتبه ، ولا متى وصل ، ولا كيف جلس ، ومن طلب له القهوة . نظر إلى ساعته ثم وقف وهو يهز رأسه :

– مولانا يريدك ، هيا بنا .

شعر ثريا بالحرج الشديد وهو يرى السلطان يدعو عزت العربي للجلوس ويتجاهله ، فانسلَّ خارجاً والعرق البارد يتصبب من جبينه . . لم يفعلها السلطان من قبل ، فما الذي طرأ حتى يعامله هكذا؟!

كان يعرف المكانة الخاصة لعزت عنده ، ولكنه كان حريصاً دائماً على التراتبية وقواعد التخاطب بين أصحاب المناصب ، ولم يكن يسمح بأي تجاوز ، فما الذي حدث حتى يهينه بهذه الطريقة المخزية أمام باشا أدنى منه رتبة ، وأقلَّ منه في السلم الوظيفي؟

ومع الأسئلة التي كانت تطرق في رأسه ؛ بدأ يستعيد الصورة القديمة لشاب استدعاه ذات ربيع من ولاية سورية ؛ وقدمه للسلطان كأفضل المرشحين لجهاز المخابرات السرية الذي أسسه بُعيد جلوسه على العرش بفترة وجيزة . كان شاهداً على تكليفه بمهمته الخاصة ، وقَسَمه على المصحف أمام السلطان . وكان مواكباً لنجاحه في الاختبار الأول ، حين كان مدحت باشا والياً في دمشق . . تذكر كيف كان يوصل بيديه تقارير الإشادة بهذا الشاب اللامع الذي طهَّر محاكم سورية من الفساد ، وكيف اقترح نقله إلى العاصمة للاستفادة من إمكانياته الإدارية الكبيرة ، وحتى بعد منحه رتبة باشا وتعيينه مفتشاً للمحاكم الأهلية في عموم السلطنة ، ثم مستشاراً في مجلس الشورى ، كان يتم ذلك كله من خلاله وعبر مكتبه ، فما الذي دعا السلطان لأن يهمله ويقرِّب عزت العربي هذا؟ لا شك في أن الأمر أكبر بكثير مما يبدو له!

وفيما هو مستغرق في هواجسه ؛ تداخلت الجدران مع سقف المكتب ، ومادت به الأرض ووقع عن كرسيه مفارقاً الوعي ، وحين استيقظ لم ير أمامه سوى وجه عزت العربي ينادي الحاجب بصوته الجهوري لإحضار الطبيب .

الصديقان

غادر عزت باشا قصر يلدز منشرح الصدر . . كادت إغماءة ثريا باشا أن تنسيه حديثه الحميم مع السلطان عبد الحميد الذي شكا له من تقدم كاتبه الأول في السن ، وكيف أنه لم يسعفه بفكرة نيِّرة واحدة حول معرض شيكاغو ، كما كان يفعل في السنوات السابقة .

أسرَّ له السلطان كيف اضطر في السنة الماضية لأن يدير بنفسه معركة منع مسرحية مسيئة لنبي الإسلام في باريس ولندن ، بعد أن خذله كاتبه الأول ، وكيف كان يتابع تطورات القضية بنفسه مع سفراء السلطنة ، حتى نجحت ضغوطه في وقف عرض المسرحية المسيئة نهائياً!

ولكن الأهم من كل ما قيل عن ثريا باشا والمسرحية ؛ هو تلميح السلطان إلى احتمال استدعائه في أي وقت لكي يكون إلى جانبه .

تذكر صديقه راجي صيقلي ، وهو يستعيد ، بشيء من اللذة ، تلميحات السلطان الأخيرة . . منذ أسابيع لم يره . . لا شك في أنه وصل الآن إلى بيته بعد أن أقفلت البورصة أبوابها ، ومن المؤكد

أنه بدأ بمساعدة زوجته في تهيئة الطعام .

عنَّ له كأس من العرق البلدي مع صحن من الكُبَّة النيئة ، وقبل أن ينعطف باتجاه بيته في حي بيبك القريب من القصر ؛ طلب من الحوذي أن يغير وجهته إلى حي بك أوغلو ، إذ قرر أن يفاجئ صديقه بزيارة مباغتة على الغداء .

تعرف عزت على راجي في ذات اليوم الذي دخلا فيه إلى مدرسة المعلم بطرس البستاني الداخلية في بيروت ، وحين أكملا المرحلة المتوسطة انتقلا معاً إلى مدرسة عينطورا العليا في جبل لبنان ، واشتركا في غرفة النوم التي خصصتها لهما المدرسة في الطابق الثاني كسائر أبناء الأثرياء ، ممن لم يشأ ذووهم أن يسكنوهم في المهجع الكبير مع باقي الطلبة .

كان عزت ابناً بكراً لمحيي الدين العابد ، الشهير باسمه المروِّع «هولو باشا» ، صاحب الحظوة الكبيرة عند السلطان عبد العزيز ، وحفيداً لعمر آغا ، أكبر تاجر للحبوب في دمشق ، وسليل أمراء عرب الموالي الذين اختُصوا بالعناية من جانب سلاطين بني عثمان ، منذ انحيازهم للسلطان سليم في معركته مع آخر سلاطين المماليك قانصوه الغوري في مرج دابق . وكان راجي النجل الثاني لأسعد صيقلي ، أكبر تاجر للحبوب في عكا ، وشريك عمر آغا في التزامات الأعشار ، فغدت الزمالة بين التلميذين صداقة لا تنفصم عراها ، رغم الفروق الهائلة في الطبائع .

تعلق راجي خلال سنوات الدرس بأجواء بيروت العابقة

بأزكى العطور الباريسية ، والمترعة بأشهى الأنبذة المعتقة . . كانت وسامته اللافتة وأناقته جواز عبوره إلى قلوب العذارى في الحفلات المختلطة التي كان يقيمها أصدقاؤه الأثرياء من آل سرسق وبسترس وتويني في بيوتهم مساء كل سبت .

زادته بيروت ، المنفتحة على البحر ، والمرتاحة في حضن الجبل ، نفوراً من أجواء عكا المحاطة بسور شاهق يطبق على أنفاسها ، ويجعلها أشبه بسجن كبير .

كان والده قد اشترى «السرايا» من الحكومة عقب انتقاله من حيفا ، وحاول جعلها مكاناً مريحاً لسكن عائلته الكبيرة ، ولكنها ظلت ، رغم تحديثاته غير المهمة ، مقسمة إلى حرملك للنساء ، وسلملك للرجال تماماً كما بناها الوالي عبد الله باشا الخزندار قبل خمسين سنة .

ورغم اتخاذه عكا موطناً له منذ عقدين من الزمن ، ظل والده طوال الوقت فلاحاً جليلياً بشارب أبيض مفتول ، يستقبل في السلملك كل ليلة ضيوفاً من البدو والحوارنة ، يأكل معهم بكفه اليمنى اللحم المطبوخ باللبن ، والبرغل المدعوك بالسمن العربي ، ويرتدي القنباز والعباءة ، ويعتمر الكوفية والعقال الغليظ ، ويتكلم بلهجته النصراوية القاسية التي تقلب القاف كافاً ، والكاف شيناً!

حين انتهت الدراسة في صيف العام ١٨٧٢ ؛ عاد عزت إلى دمشق ليبدأ رحلة الصعود إلى قمة الهرم الوظيفي ، وهبط راجي

إلى عكا بلغتين أجنبيتين ، وذهن مشوش ، وحلم مؤجل بالعودة إلى بيروت .

حاول والده إشراكه في مسائل البيع والشراء وشحن الحبوب ، فلم يُبدِ اهتماماً يذكر . . كلفه بجمع الأعشار من قرى الجليل الأعلى بصحبة شقيقه الأكبر ، فلم يتحمس للأمر ، وكان يقول : ما خُلقت لمثل هذا!

وبعد أن طالت حيرته وحيرة أبيه وأمه وشقيقاته وأشقائه ؛ اهتدى في تلك السنوات القلقة إلى عباس أفندي ، جارهم الجديد المنفي مع والده العجوز بهاء الله من بلاد فارس بسبب دعوته إلى دين جديد ، فلازمه قرابة العام ، وتعلم على يديه الفارسية والتركية حتى أتقنهما ، وصار يلح على والده بعد ذاك بالتوسط لدى معارفه الكثر ، لعلَّه يجد له وظيفة في بيروت .

رفض والده الفكرة رفضاً قاطعاً ، ووجهه بدلاً عن ذلك إلى صديق له في الأستانة ؛ كان منفياً في عكا ذات يوم ، قبل أن يصبح مقرباً من السلطان عبد العزيز ، فعينه ترجماناً لولي العهد .

ولكن عزل السلطان عبد العزيز ومقتله بطريقة غامضة في أواسط العام ١٨٧٦ ، وما تلا ذلك من مذبحة ارتكبها صهره حسن جركس بعدد من وزراء الحكومة ، بمن فيهم صديق والده الذي توسط له ، والجنون المفاجئ للسلطان الجديد مراد الخامس ، كل ذلك دفع والده لاستدعائه على عجل ، ليعمل ترجماناً في مركز القضاء ، ثم ليتزوج من ابنة الحي ميليا عبود التي لم تكف عن

مطاردته بالرسائل ؛ مذ رأته للمرة الأولى في إكليل شقيقها قبل عامين .

وكان حلم بيروت يبتعد يوماً إثر يوم ، وسور عكا يزداد ارتفاعاً ، وأجواء السرايا تزداد قتامة ، عاوده شغف قديم بالمسرح ، وقرر أن يشكل فرقة يحارب بها مساءات عكا المتشابهة .

ولكن المسرح يحتاج إلى فرمان سلطاني من الصعوبة بمكان الحصول عليه ، إذ عاد طلب البراءة الشرعية لهذا المسرح من الأستانة بالرفض ، فوجهه المتصرف إلى عاصمة الولاية علّه يعثر على حل عند صديقه عزت بك العابد ، مفتش محاكم الولاية ، وكان الحل الذي اقترحه عليه صديقه أن يؤسس فرعاً للجمعية الخيرية الأرثوذكسية في عكا ، وأن يقدم مسرحياته تحت هذا الغطاء الذي لا يحتاج إلى موافقات ، فأسس فرعاً للجمعية في عكا ، وبدأ يقدم مسرحيات فرنسية مترجمة ، كان قد تدرب عليها جيداً في مدرسة عينطورا .

ولكن قراراً مفاجئاً صدر أواخر العام ١٨٨٣ قضى بمنع التمثيل في ولاية سورية منعاً باتاً ، بسبب اتهامات لأبي خليل القباني بانتهاك الآداب العامة ، فأوقف مسرح عكا ، وعادت الليالي الكئيبة لتجثم على صدر راجي من جديد . . ولكن وفاة والده المفاجئة في العام ١٨٨٥ أعادت له شيئاً من الأمل في خرق سور الكآبة الذي يحيط به ، فاستحوذ على مبنى السلملك في قسمة التركة ، ولم ينتظر أكثر من شهر ليفتح له باباً مستقلاً من جهة

ساحة عبود ، ويؤثثه بأحدث القطع المستوردة من إيطاليا .

وكان ذلك التصرف «المتهور» مبعث غضب والدته ، وامتعاض أشقائه! غير أن الأمر الذي أدى بهم لإعلان القطيعة معه ، مسلكه المستهجن الغريب عن عادات عكا والناصرة في بيته الجديد ، إذ كان يدعو القناصل الأجانب المقيمين في عكا ، ويقيم لهم الحفلات المختلطة ، وكانت زوجته ميليا بزيها المتفرنج تستقبل الضيوف إلى جانبه كأي سيدة مجتمع بيروتية .

ومع الوقت كانت أجواء عكا تزداد تجهماً ، والوجوه والأحاديث تتكرر في السهرات وتفقد بريقها الأول ، ومما زاد في كآبة المدينة ؛ ذلك العداء الذي بات أشقاؤه لا يخفونه ، حتى أمام الغرباء ، بل وصل الأمر بشقيقه شبلي أن ينكره أمام شخص سأل عنه . . وكان هذا الإنكار أشد وقعاً عليه من كل المواقف الأخرى ، فطلب الصفح من أمه ، وشرح لها ظروف عمله التي تقتضي أن يظهر أمام الأجانب بهذا المظهر ، وأنه لم يقصد الإساءة لوالده . . فهدأت الأمور قليلاً ، وبدأت المياه تعود ببطء إلى مجاريها .

ولكن عكا لم تعد مكاناً قابلاً للحياة ، كما قال لميليا وهو يحدثها عن توقه الشديد لمغادرتها ، والبحث عن مكان آخر لا أسوار عالية تحيط به من كل صوب! وكان خبر انتقال صديقه عزت العابد إلى الأستانة ؛ وارتقائه إلى رتبة الباشوية ، بصيص الأمل الذي انتظره طويلاً لكي يحقق حلمه ، فراسله طويلاً ، ثم سافر إليه ، ومكث عنده فترة من الزمن ، قبل أن يعود حاملاً قرار

تعيينه سكرتيراً عاماً لإدارة حصر التبغ العثمانية في بيروت .

وكان هذا أقصى ما يريده ، فحمل أسرته إلى بيروت التي اشتاق لبحرها وجبلها ، واستأجر بيتاً فخماً في الأشرفية ، وصار يقيم فيه الحفلات الباذخة التي كان ينفق فيها على ضيوفه معظم ما يجنيه من وظيفته ، وما يصل إليه أيضاً من عائدات أملاكه في عكا .

ولم يلبث أن تجدد حبه القديم لإملي سرسق ، التي أصبحت سيدة مجتمع شهيرة ، فبذل في مشاريعها «الخيرية» الأموال الطائلة ، حتى اضطر للاستدانة! وكانت قمة المصائب التي ألّمت به في تلك الأيام ، تلزيم إدارة حصر التبغ العثمانية لشركة خاصة استغنت عن خدماته في عملية إعادة الهيكلة التي أجرتها ، فلجأ مجدداً إلى صديقه عزت باشا فشجعه على القدوم إلى الأستانة ، علّه ينجح فيما فشل به في بيروت!

سلسلة بوتنام

منذ أن عثر على عظم الفخذ الأيمن لامرأة بالغ على جرف جليدي متحجر شمالي ولاية نيوجيرسي قبل عشر سنين ، سيطرت على البروفيسور بوتنام نظرية الإنسان الجليدي الأميركي . كان عظم الفخذ دليله العلمي على تلك النظرية المستحيلة التي تخالف جميع الاكتشافات والنظريات السائدة التي تقول إن أصل الإنسان من إفريقيا ، وأنه هاجر إلى أميركا منذ بضعة آلاف من السنين ليس إلاَّ .

أما كيف عرف أنه عظم فخذ امرأة وليس رجلاً ، فقد شرح ذلك لزملائه وطلابه في جامعة هارفارد بكلمات مختصرة :

– درجة انحناء عنق الفخذ تؤكد أنه لامرأة بالغ ، فمن المستحيل أن يكون هنالك رجل لديه حوض بمثل هذا الاتساع ، الذي فرض هذه الدرجة من الانحناء .

قال أحد زملائه في قسم التاريخ الطبيعي ساخراً :

– يبدو لي هذا الانحناء وكأنه يصلح لحوض أنثى دب .

كظم بوتنام غيظه ، وقال لزميله ببرود أكاديمي :

– عظم أنثى الدب أقصر .

فتابع زميله سخريته :

- إذن هو عظم فخذ حصان شاذ!

يومها ضحك كل من كان في القاعة على تعبير «الحصان الشاذ» ، والآن ؛ وبعد عشر سنين من تلك القصة السخيفة ، استعار صحافي جاهل في صحيفة «شيكاغو ديلي كلوب» التعبير ذاته ، «الحصان الشاذ» ، لكي يصف خطة البروفيسور بوتنام لشارع الترفيه الملحق بمعرض شيكاغو الكولومبي .

قال البروفيسور لصديقه مدير المعرض العقيد جورج ديفيز ، وهو يلقي الصحيفة في سلة المهملات :

- مللت من التفاهة!

في اليوم السابق عقدت إدارة المعرض مؤتمراً صحافياً بمناسبة تكليف البروفيسور بوتنام بمسؤولية الإشراف على قسم الترفيه ، بعد أسابيع قليلة من صدور قرار بتسميته مديراً لقسم الأنتروبولوجيا في المعرض .

في بداية المؤتمر ؛ قدم العقيد ديفيز ، لجمهور الصحافيين المحتشدين ، صديقه البروفيسور بكلمة قصيرة حافلة بالمديح والإطناب ، عدد فيها منجزاته العلمية ، وسمعته الأكاديمية ، وعرَّج على قصة اكتشافه عظم الفخذ الجليدي ، محاولاً تبسيطها للحاضرين ، ولكنه تلعثم ، وارتبك ، وتعرق جبينه ، وكانت تلك فرصة للبروفيسور كي يستلم الحديث :

- أشكر صديقي العقيد ديفيز على هذا الإطراء! سوف يكون

لدينا شارع بطول ميل واحد في منطقة «ميدواي بليزانس» ، يبدأ من أكواخ القش الإفريقية ، حيث نرى الوحشية التي تجعلنا نصدق القصص التي قرأناها عن جيوش الأمازونات وأكلة لحوم البشر! ثم ننتقل إلى قرية البولونيزيين ، التي تظهر عظمة تطور أبدانهم وطريقة إشعالهم النار بعودين خشبيين ، وهي طريقة تعيدنا إلى العصور السحيقة ، فمخيم الهنود الحمر وألوان أزيائهم الغريبة ، فقرية جاوة الخشبية ، ثم القرية اليابانية ، فالتركية ، فالمصرية ، فالهندية ، وبعد ذلك نصل إلى القرى الأوروبية ، كالقرية الإيرلندية ، والألمانية ، والبانوراما السويسرية ، وفيينا القديمة ، والتي ستشكل في مجملها المعبر الطبيعي إلى المدينة البيضاء ، مقر معرضنا الكولومبي .

وهنا وجد العقيد ديفيز فرصة لاستعادة هيبته :

– المدينة البيضاء التي تحدث عنها صديقي البروفيسور بوتنام ستمتد على مساحة ستين هكتاراً تمثل خلاصة تطور البشرية ، من حيث التناظر المعماري ، وروعة التوازن بين الأبنية والقنوات المائية والبحيرات التي لم تجتمع في مكان واحد من قبل ، بالإضافة إلى الأضواء الكهربائية التي لم تعهد الإنسانية انتشارها بهذه الكثافة .

ووجد البروفيسور في كلمة الإنسانية فرصة لكي يستلم الحديث مجدداً :

– إن مسار تطور الإنسانية لا يسير بخط مستقيم ، ولكننا

اضطررنا في «شارع الترفيه» أن نجعله مستقيماً لدواعٍ هندسية بحتة! ولذلك ؛ فإن السلسلة التي سترونها ، ستكون أشبه بدرس عملي في علم الأنثروبولوجيا ، يساعدكم على فهم فكرة تطور الإنسان من البدائية الوحشية إلى الحضارة ، ولكن بشكل مبسط يسهل فهمه . ومن أجل هذا وضعنا معجزتنا الميكانيكية «عجلة الهواء الدوارة» في منتصف الطريق ، إذ سيتاح للأميركيين ركوبها والنظر من الأعلى ؛ كأنهم يطلون من كوكب آخر على هذا العالم الوحشي الجميل القابع أسفلهم ، والمكتظ بأنواع عديدة من البشر السعداء!

لم يرتح لذلك الصحافي الذي نهض فجأة ، وسأل قبل أن يأذن له مدير المؤتمر :

– سيدي البروفيسور ؛ ألم تكتفوا بمبنى الأنثروبولوجيا الذي سيضم الجماجم البشرية المكتشفة واللوحات والمجسمات التي توضح أفكاركم ، لكي تستولوا على قسم الترفيه؟!

وقع السؤال على البروفيسور كالصاعقة ، ونظر إلى العقيد نظرة خاطفة قبل أن يرد :

– أنت تعرف أن قاعة الأنثروبولوجيا سوف تضم مجسمات ، ولوحات ، وعظاماً بشرية ، وآثاراً طبيعية ، بلا حياة ، أما شارع «ميدواي بليزانس» فسيكون أشبه بمحمية طبيعية ، سوف يرى فيها الأميركيون حياة الشعوب الأصلية على حقيقتها ، من الأكواخ ، إلى المخيمات ، إلى الأزياء ، إلى الطعام ، وسوف

يستمعون إلى طبول الأفارقة ورقصاتهم البدائية ، وطقوس الأفراح في جزيرة جاوة ، وطقوس الحزن في اليابان ، وغناء الأتراك الحزين . . سوف يتيح هذا الشارع للأميركيين رؤية أقدم شعوب أوروبا ، شعب اللابلاند ساكن الدائرة القطبية بصحبة الرنَّة ، ذلك الحيوان الذي استعاض فيه عن الحصان والبقرة معاً ، وسوف يرون بأعينهم الفلاح الإيرلندي وهو يفتح براميل جعة «غينس» السوداء ، والفلاح السويسري وهو يعد قوالب الجبنة الصفراء ، كل ذلك سيكون متاحاً للأميركيين مقابل رسوم رمزية زهيدة .

قاطعه الصحافي بحدة :

- ولكن ؛ أين الترفيه في الأمر سيدي البروفيسور؟

اكفهرت المنصة وبدت ألوان الغضب على وجه العقيد ديفيز ، فبادر البروفيسور :

- لا تقلق يا عزيزي ، أنا أضمن لك بأن يكون قسم الترفيه هذا مصدر جذب كبير لرواد المعرض ، وسيستمتع به الأميركيون أكثر مما تتوقع .

بعد ذلك انتقل الكلام إلى صحافي ثانٍ ، فثالث ، فرابع ، حتى نسي البروفيسور والعقيد وجه الصحافي المزعج الذي افتتح الأسئلة ، ولكن مقاله «اللئيم» المنشور اليوم على صدر الصفحة الأولى تحت عنوان «عصور أميركا المظلمة» عاد وذكرهم به من جديد .

قال البروفيسور للعقيد الغارق في مطالعة صحيفة أخرى .

– أحاول أن أجد الرابط بين صحافي «شيكاغو ديلي كلوب» وبين البروفيسور الذي سخر من أطروحتي قبل عشر سنين ، ولم أعد أذكر من كان بالضبط ، فالشخصان استخدما المصطلح نفسه : «حصان شاذ»!

اعتدل العقيد في جلسته وقال بجدية :

– اسمع ياصديقي ؛ لا ينبغي أن تعير بالاً لما يُكتب في الصحافة ، فهؤلاء أعرفهم جيداً ، وأعرف تماماً من يقف وراءهم . المهم أن تسرع في عملك وتثبت لأعدائنا أن المشروع يسير كما هو مرسوم له .

استرعت كلمة أعدائنا انتباه البروفيسور فتوقف عندها :

– هل الأمر بهذا السوء؟!

هز العقيد رأسه وقال مؤكداً :

– وأكثر من ذلك ، وعلينا توقع المزيد . . هم يقولون الآن إن قسم الترفيه بات نزوة من نزواتنا الخاصة ، أنا وأنت ، وأنه سيذهب ضحية للنزعة النخبوية الأكاديمية المغلقة ، الخاصة بك أنت ، ويزعمون أنه سيشكل خسارة مالية كبيرة للمعرض .

أحبطت كلمات العقيد عزيمة البروفيسور بوتنام ، فهو صاحب فكرة الترفيه المقترن بالتعليم ، وأكثر ما أدهشه وأحزنه في حديث العقيد هو الإلحاح على موضوع الخسارة المالية المتوقعة ، فكيف يستقيم هذا الكلام ؛ مع الأخبار الرسمية التي تحدثت عن رصد اعتمادات حكومية تغطي تكاليف المعرض كافة؟!

لم تكن هذه الصراعات المعقدة مفهومة من البروفيسور ، كان الأمر بالنسبة له أبسط من ذلك . . هنالك معرض عالمي يهدف إلى تسليط الضوء على آخر منجزات الحضارة الغربية ، وعلى رأسها الكهرباء ، وعلى هامش ذلك المعرض ثمة شارع لترفيه القوم وتسليتهم ، فما المانع أن تكون التسلية مفيدة ، وتعليمية؟ لماذا يعقدون الأمور؟!

دعوة ثانية

بينما كان السلطان عبد الحميد يهم بمغادرة مكتبه إلى الحرملك ، في ذلك المساء البارد من شهر كانون الثاني ١٨٩٢ ، هرع ثريا باشا إليه يخبره بوصول رسالة من السفارة الأميركية تتعلق بمعرض شيكاغو .

قال السلطان بتأفف :

- ماذا يريدون أيضاً . . ألم تخبرهم بأننا سنشارك؟

أجاب ثريا باشا :

- كان هذا منذ عام تقريباً يا مولاي ، ونحن بانتظار أوامركم للتنفيذ .

قال السلطان مستهجناً :

- ولماذا لم تذكرني؟

رد الباشا وعلى محياه ابتسامة خفيفة أظهرت شللاً في خده الأيمن :

- ذكَّرتك كثيراً يا مولاي ، ولكنك في كل مرة كنت تشير لي بيدك أن أكف عن الكلام ، وكنت أمتثل لأوامركم .

قال السلطان وهو يغادر :

- غداً نرى .

أخفض ثريا باشا رأسه وهو يقول :

أمر مولاي ، وغداً تكون ترجمة الرسالة جاهزة منذ الصباح .

وما إن توجه السلطان إلى السلملك ، حتى أطبق الصمت على القصر ، وانقطعت الضحكات في الحديقة ، وغابت أصوات الآلات الموسيقية التي كان أبناؤه يعزفون عليها في غرفهم .

دخل إلى مخدعه وقد اكتست ملامحه بالكآبة ، فمنذ ثمانية شهور لم يستطيع أن يجيب عن السؤال الذي طرحه على ثريا باشا : بماذا نشارك في معرض شيكاغو؟

قال الأثوابجي باشي عصمت بك وهو يلبسه رداء النوم :

- مولاي ؛ أنت أخي بالرضاعة ، ويعز علي أن أراك مكتئباً .

قال للأثوابجي وهو يربت على كتفه :

- لا عليك يا أخي سنصلي العشاء ، وحين ننتهي أخبرك .

بعد الصلاة لم يخبر عصمت بك بشيء ، بل طلب منه أن يقرأ له كتاباً مسلياً يساعده على النوم .

قبيل أذان الفجر استيقظ وهو يشعر بعطش شديد ، تلمس جسده ووجهه قبل أن ينهض من فراشه ليسفَّ مسحوق السنامكِّي المسهل ، مخلوطاً بالسكر الناعم ، كعادته كل يوم ، وليشرب بعدها كأساً من مياه فريدريك المعدنية الألمانية .

قال له عصمت وهو يلبسه ثيابه بعد أن خرج من الحمام :

- مولاي فدتك روحي ما الذي يشغلك؟

تبسم لعصمت على مضض وقال له :

- لا عليك يا أخي ، الموضوع يتعلق بمشاركتنا في معرض شيكاغو .

قال عصمت مستغلاً رغبة السلطان بالحديث :

- وما المقلق في الموضوع؟

قال السلطان متبرماً :

- لا شيء البتة! الموضوع بكل بساطة أنه لا شيء لدينا لنشارك به ، امبراطورية تنتشرعلى ثلاث قارات ، ولا شيء لديها لتشارك به في سباق الأمم .

التزم عصمت بك الصمت ، فجرع السلطان فنجان قهوته بغضب ، ونفث لفافة تبغ ، ومضى باتجاه مكتبه وهو يهجس بمعرض شيكاغو ، وما إن جلس خلف المكتب حتى حضر ثريا باشا حاملاً الرسالة المترجمة .

قال السلطان :

- ماذا لديك يا باشا؟

ردَّ ثريا وهو يبتسم :

- ترجمة الرسالة الأميركية يا مولاي .

بدأ ثريا باشا بقراءة ترجمة الرسالة بلهجة خطابية بليغة ، وقبل أن يكمل الفقرة الأولى صاح السلطان بنبرة حاسمة :

- كفى!

طوى الباشا الرسالة ، وأخرج من جيبه منديلاً مسح به العرق

البارد الذي نفر فجأة من جبهته العريضة وسال على وجهه الممتقع .

نهض السلطان من وراء مكتبه ووقف مقابل ثريا باشا ، وقال بهدوء مصطنع يجلله الغضب :

- كيف تجرأوا على إرسال هذه الرسالة؟

ازدرد ثريا باشا ريقه مرات عدة قبل أن يجيب :

- مولاي ؛ لو كنت أعلم أنها ستغضبك لما عرضتها عليك .

قال السلطان وكأنه لم يسمع تعليق الباشا :

- اكتب لهم الآن رسالة أخبرهم فيها أن السلطانة الأم امرأة مسنة ، منقطعة لعبادتها ، وحذِّرهم من تكرار مثل هذه الدعوة!

كانت حساسية السلطان مفرطة تجاه تدخّل «حريم القصر» في الشؤون العامة ، كان يعتقد بأن تدخل والدة عمه السلطان عبد العزيز ، ووالدة أخيه السلطان مراد بشؤون السلطنة هو الذي قاد إلى مأساتيهما ، ولذلك ؛ كان قراره الأول ؛ إخراج والدته الروحية بريستو قادين من دائرة صنع القرار ، ففي اليوم الأول لجلوسه على العرش ، زارها في مخدعها ، وقبل يدها وقال :

- لم أشعر في يوم من الأيام بحرماني من والدتي ، وأنت في نظري مثلها تماماً ، لا فرق بينكما ، إن مكانتك هي مكانة «السلطانة الأم» ، وسوف يكون من حقك استخدام صلاحياتها كافة في القصر ، غير أني أرجو منك بصورة خاصة يا والدتي أن تتجنبي التدخل في شؤون الدولة ، فتسعين لحماية هذا أو ذاك ،

وتساعدين الطامعين بالرتب والمناصب .

يومها قبلته على جبينه وقالت له :

- لا أريد شيئاً في هذه الدنيا سوى عبادتي فلا تقلق يا سبعي .

لم يفهم ثريا باشا سبب غضب السلطان الشديد ، ولم يحاول البحث عن سبب منطقي لذلك الغضب ، فقد عاد مسرعاً إلى مكتبه ، وبدأ بتدبيج رسالة شديدة اللهجة إلى السفارة الأميركية ، رداً على الرسالة التي وجهتها رئيسة القسم النسائي في معرض شيكاغو السيدة بيرثا هونوريه بالمر للسلطانة الأم ، والتي تدعوها فيها إلى تشكيل لجنة نسائية للمشاركة في المؤتمر العالمي الأول للمرأة ، المنعقد على هامش المعرض .

كان الجواب الذي خطه ثريا باشا للسفارة الأميركية متناسباً مع نبرة السلطان الحازمة ، إذ امتلأ بعبارات التحذير ، وعج بالتساؤل عن الغاية من وراء هذه الدعوة ، والشخص أو الأشخاص الذين أوحوا بالفكرة!

وحين وصل الرد إلى السيدة بالمر ؛ لم تفهم سبب هذه الحدَّة في الرد ، فقد أرسلت رسائل مماثلة إلى الكثير من أمهات وزوجات الملوك ، والكثيرات ممن وصلتهن الدعوة رحبن بها وشكَّلن اللجان النسوية التي ستشارك في المؤتمر . . صحيح أن بعض الردود كان مستهجناً ، مثل رسالة الحكومة التونسية التي أوضحت أن المرأة في هذا البلد ممنوعة من المشاركة في الأنشطة العمومية ، أو رد

امبراطورة اليابان بأن المرأة ليست بهذه السوية العقلية التي تؤهلها للقيام بمثل هذا العمل ، ولكنها لم تكن ردوداً غاضبة مثل غضب الرسالة التركية ، فلم تشغل بالها كثيراً بالأمر ، فالأتراك ، كما قالت لنفسها ، شعب غاضب بالفطرة ، وبدل أن تحاول تفسير ذلك بدأت بتحرير رسائل إلى عدد من النساء السوريات ؛ تتضمن تعريفاً بمؤتمر المرأة العالمي ، وبمعرض المشغولات النسوية اللذين سيقامان على هامش المعرض الكولومبي ، فوصلت رسالة إلى هند نوفل رئيسة تحرير مجلة «الفتاة» ، وأخرى إلى زينب فواز ، وثالثة إلى مريم خالد ، ورابعة إلى أستير أزهري ، وخامسة إلى أنيسة صيبعة ، وسادسة إلى سلمى عرمان ، وسابعة إلى هنا كوراني!

مقياس الجبنة

لم ينتظر سول بلوم طويلاً حتى حضر البروفيسور بوتنام إلى مقر إدارة المعرض ، كان يتوقع أن ينتظر أكثر من أسبوع بعد أن قال له الكثيرون ؛ إن البروفيسور نادراً ما يأتي فهو مشغول دائماً بمحاضراته وطلابه . . وحين دخل إلى مكتبه لم يعبأ به كثيراً ، ظنه مجرد مراسل من أولئك الذين يعج بهم المبنى إلى أن قال له :

- سول بلوم!

هز البروفيسور رأسه مرات عدة وهو يقول للشاب القصير النحيف الواقف أمامه باسماً :

- نعم أنا أنتظره أين هو؟

ردَّ بلوم بثقة :

- أنا سول بلوم سيدي البروفيسور .

ارتبك البروفيسور بوتنام في جلسته قبل أن ينهض مادّاً يده للمصافحة ، فبدا الفارق الكبير بين طوله الفارع وضخامته ، وقصر وضآلة بلوم :

- هل تقصد أنك أنت سول بلوم الذي حدثني السير مايك دي يونغ بشأن الموعد معه؟

ضحك بلوم وهو يشد على يد البروفيسور :

- تماماً ؛ أنا هو .

قال البروفيسور وهو يشير له بالجلوس :

- كنت أظنك أكبر من ذلك ؛ أنت تبدو فتى يافعاً ، فمن أين لك كل هذا؟

شعر بلوم بالإحراج ، فقال للبروفيسور مغيراً مسار الحديث :

- ليس إلى هذه الدرجة يا سيدي أنا بالغ بالقانون ، وقد أتيت إليك اليوم للسؤال عن طلبي بشأن امتياز القرية الجزائرية - التونسية ، أريد أن أعرف أين وصل؟ فالوقت يداهمنا ، ولم يعد لدينا إلاّ عام واحد وبضعة شهور على الافتتاح .

حك البروفيسور لحيته الرمادية ثلاثاً ، ثم أغمض عينيه قليلاً قبل أن يقول :

- إن شئت الحق يا سيد بلوم ، فإن قريتك الجزائرية أربكت مخططاتي لشارع الترفيه ؛ أين سأضعها؟

قال بلوم بتلقائية :

- ضعها في المنتصف فهي ستشكل مركز جذب كبير .

ابتسم بوتنام باستخفاف :

- إنك لا تدرك ما تقول سيد بلوم ، كيف أضعها في المنتصف والجزائريون أدنى من ذلك في سلم التطور الإنساني .

كظم سول بلوم غيظه ، وقال للبروفيسور :

- هل تشرح لي سيدي البروفيسور ما الذي تقصده بسلم

التطور الإنساني؟ نحن هنا نتحدث عن شارع للتسلية يفترض أن يشكل مكان جذب وإنفاق .

نظر بوتنام باستخفاف للشاب المتحذلق الواقف أمامه ، وقال شارحاً :

- جوابي هذا من أجل السيد دي يونغ فقط! لقد قررنا أن يكون شارع الترفيه في «الميدواي» أشبه بمحمية طبيعية تجسد مسيرة التطور البشري من المرحلة البدائية الوحشية إلى المرحلة الأعلى في التطور ، والتي أنتجت حضارتنا . . ولذلك لم أجد مكاناً للقرية الجزائرية في هذا المجسم الحي . . أرجو أن تخبرني الآن يا سيد بلوم ، وبعد أن علمت بتصوراتنا لشارع الترفيه ، أين يمكن أن نضع القرية الجزائرية؟

قطب بلوم حاجبية وقال بشيء من الحدة :

- وما هو مقياسك للتطور حضرة البروفيسور؟

نهض البروفيسور وذرع مكتبه مرات عدة وهو يقول :

- أظن أن الموضوع أعقد مما يبدو لك ولكني سأبسط المسألة ، ومن أجل السيد دي يونغ أيضاً!

توقف إلى جانب قفص «عصافير داروين» وقال ، كأنه يلقي درساً على تلاميذه :

- هل يصنع الجزائريون الجبن . . أجبني يا سيد بلوم؟

بدا الذهول على وجه سول بلوم ولم يحر جواباً ، فتابع البروفيسور :

- لا تعرف ، وأنا لا أعرف أيضاً ، ولكنني أظن أنهم لا يعرفون صناعة الجبن ، وإذا عرفوه فسيكون من ذلك النوع البدائي الأبيض . الشعوب البدائية الزنجية التي تعيش في أكواخ القش لا تعرف صناعة الجبن ، يا سيد بلوم ، هم يشربون الحليب من ضروع البقر أو الماعز مباشرة ، لا يعرفون أي وسائل لحفظ الحليب . هناك شعوب أكثر تطوراً في صحارى آسيا يعيشون في الخيام ، ويحولون الحليب إلى لبن ولا يعرفون الجبن . صناعة الجبن تبدأ من سكان الخيام الأكثر تعقيداً في سهوب أوراسيا ، فهؤلاء توصلوا إلى سر تحويل الحليب إلى خثارة بيضاء ، ولكنها خثارة بدائية لا تدوم طويلاً . وحدهم سكان القرى الأوروبية توصلوا إلى سر صناعة الجبن الذي نعرفه ونستمتع بطعمه ورائحته عبر عمليتين معقدتين احتاجت كل واحدة منهما إلى عشرات الآلاف من السنين . فالجبن السويسري هو قمة التطور في صناعة الغذاء ، تماماً كما أن الأوروبي هو قمة التطور في سلم الحضارة الإنسانية!

شعر بلوم بالصدمة حين أنهى البروفيسور كلامه فبادره بتلقائية :

- وماذا بشأن العقيد بوفالو بل بطل الغرب الأميركي المتوحش ، وصائد ثيران الفيزون ، علمت أنه سيشارك مع فريقه بنشاطات المعرض الترفيهية ، أين ستضعه في سلم التطور الحضاري؟

انزعج البروفيسور من السؤال فرد بعبارات حاسمة :

– لن أسمح للعقيد بوفالو بل بالمشاركة ، لأنه لا يعبر عن حقيقة الثقافة الأميركية البيضاء ، هو يمثل للثقافة الرعاعية الهجينة ، بين توحش الهنود الحمر وحثالات المجتمع الأبيض . . نحن ننتمي إلى مرحلة الجبنة السويسرية حضارياً سيد بلوم .

انسحب سول بلوم بهدوء من هذا الحوار العبثي الذي لن يفضي إلى أي مكان ، وقبل أن يغادر شيكاغو متوجهاً إلى صديقه دي يونغ في سان فرانسيسكو ، زار حديقة «جاكسون بارك» فرأى أن العمل في المباني المخصصة للمعارض الفنية وقاعات التكنولوجيا وقصور الثقافة يسير بشكل جيد ، أما شارع الترفيه في «ميدواي بليزانس» فكان على حاله ، اللهم إلاَّ «عجلة الهواء الدوارة» العملاقة التي بدأ المهندس جورج واشنطن فيرِّس العمل فيها فعلاً .

كانت علاقة سول بلوم بعضو اللجنة الوطنية لمعرض شيكاغو ، السير مايكل دي يونغ ، تعود إلى مرحلة مبكرة من حياته ، حين عمل إدارياً في مسرح «الكازار» المملوك لدي يونغ ، ولكن الفتى الباسم دائماً لم يكن ليرضى بأن يظل مجرد إداري في مسرح ، فسافر في العام ١٨٨٩ إلى أوروبا ، لاستكشاف ذلك العالم القديم ، ومشاهدة معرض باريس العالمي الذي طارت شهرته إلى الآفاق . . كان برنامج ذلك المعرض يعج بالعروض الشعبية ، وطرق تحضير المأكولات التقليدية الأوروبية ، كالجبنة السويسرية ، والنقانق الألمانية ، والنبيذ الفرنسي ، والجعة الإيرلندية السوداء ،

بالإضافة إلى نوع جديد من العروض قادم من المستعمرات الفرنسية في إفريقيا .

استحوذت أجواء «القرية الجزائرية» و«شارع القاهرة» على خيال بلوم طيلة مكوثه في باريس ، وبدا وهو يتابع عروضهما من دون انقطاع ، وكأنه أصيب بمس من السحر ، فاتفق مع المونسنيور غوينون ، صاحب امتياز القرية الجزائرية ، على دفع خمسة آلاف فرنك فرنسي ، مقابل وكالة حصرية لتنظيم عروض في الأميركيتين ، ولكن خططه أحبطت بسبب إعراض أصحاب المسارح في نيويورك وسان فرانسيسكو عن تقبل فكرة عروض شرقية في صالات مصممة للأوبرا الإيطالية والمسرح البريطاني والفرنسي ، فأخبر صديقه دي يونغ بالكارثة التي حلت به ، فما كان منه إلا أن نهض عن كرسيه ، وقال له بحماس :

– لا تقلق ، لقد فزنا بقرعة تنظيم المعرض العالمي في شيكاغو هذه المرة ، وسيكون ذلك أفضل مكان لفريقك الاستعراضي .

حين وصل بلوم إلى سان فرانسيسكو قادماً من شيكاغو بعد لقاء البروفيسور بوتنام ، اشتكى لصديقه من تباطؤ العمل في قسم الترفيه ، وشرح له نظرية التطور «البوتنامية» ، فضحكا كثيراً ، وبدأ دي يونغ يطيّر البرقيات إلى واشنطن وشيكاغو ، وبعد أسبوع فوض الكونغرس الأميركي السير دي يونغ بتعيين مدير لامتيازات المنطقة الترفيهية في «ميدواي بليزانس» ، فعرض الوظيفة على سول بلوم مقابل ألف دولار في الأسبوع!

كانت مخاوف الفشل ، بعد أربع سنوات من الكساد الاقتصادي ، وتجربة معرض فيلادلفيا المتعثرة في العام ١٨٧٦ ، تسيطر على هواجس منظمي معرض شيكاغو ، فخسارة أخرى ليس من شأنها أن تضعف ولاية إلينوي وحدها ، بل الولايات المتحدة ككل .

عاد بلوم إلى شيكاغو منتصراً ، ولم يجد البروفيسور المشغول بأبحاثه وطلابه ، فباشر في إعادة تقويم شاملة للامتيازات ، وبدأ بمخاطبة الدول المدعوة لكي تباشر في بناء أجنحتها في شارع «ميدواي بليزانس» .

دعوة ثالثة

قرأ ثريا باشا البرقية المترجمة عن الإنكليزية بتمعن شديد قبل أن يحملها إلى مكتب السلطان . . كانت موجهة من مدير المعرض الكولومبي العالمي في شيكاغو العقيد جورج ديفيز إلى المسؤولين في الحكومة «التركية» ، يدعوهم فيها إلى استلام مساحة الأرض المخصصة من الحكومة الأميركية لجناح السلطنة في «جاكسون بارك» ، ومع رسالة العقيد ديفيز ملحق من مدير الامتيازات الأجنبية سول بلوم يتضمن خارطة شارع الترفيه في «ميدواي بليزانس» والمخطط المبدئي لـ«القرية التركية» ، ولم ينس الباشا تغيير عبارتي «الحكومة التركية» ، و«القرية التركية» إلى «حكومة السلطنة العثمانية» ، و«القرية العثمانية» ، قبل أن يعرضها على «الخاقان» ، فاسم تركيا كان يثير حساسية مفرطة لديه ، ويذكِّره بأن الأوروبيين لا يعترفون بسلطته خارج حدود الأناضول!

قال السلطان عبد الحميد بعد أن استمع إلى البرقية بتمعن :

- شكِّلوا لجنة .

كانت هي الجملة التي انتظرها ثريا باشا منذ عام انتظار أب

لمولوده البكر ، فانسحب مسرعاً باتجاه الباب وهو يلهج بعبارات الخضوع والامتثال :

– أمر مولاي ، الموضوع برمته سينجز خلال أيام .

أغلق الباشا باب مكتبه وجلس يرسم في مخيلته سلسلة تنظيمية للجان المعرض . . قال لنفسه وقد علت محياه ابتسامة ظفر غامضة :

– هذه اللجنة ينبغي أن تكون على قدر الدولة العلية ومكانتها!

كان معرض شيكاغو فرصته الحاسمة لإثبات كفاءته من جديد وتجديد الثقة بنفسه ، بعد أن تركه السلطان يتحدث مرتين من دون أن يعير كلامه أدنى اهتمام . . صحيحٌ أنه لم يجد حتى اللحظة الجواب عن سؤال : بماذا نشارك؟ ولكن هذه المشكلة ستتحول بعد تشكيل اللجان إلى قضية كبرى ، وعلى الوزراء والمسؤولين أن يتحملوا المسؤولية ، وأن يثبتوا كفاءتهم ؛ بدلاً من حصر الأمر به شخصياً .

فكر بلجنة عليا تفكر ، وبلجنة أدنى منها تخطط ، ولجنة أدنى تنظِّم ، ولجنة أدنى تنفِّذ ، وأخيراً لجنة تراقب التنفيذ . . تنبه إلى أن لجنة الرقابة لا ينبغي أن تكون مستقلة أو منفصلة عن لجنة التنفيذ ، أو أن يكون أعضاؤها معروفين ، لأن ذلك سيعيق عملهم ، ولذلك فكر بأن تكون لجنة سرية داخل لجنة التنفيذ .

هز رأسه معجباً برجاحة عقله ، وخط أسماء أعضاء اللجنة

العليا على ورقة بيضاء أمامه وهو يتبسَّم :

– الصدر الأعظم أحمد جواد باشا ، شيخ الإسلام محمد جمال الدين أفندي ، السرعسكر المشير محمد رضا باشا ، ناظر الخارجية محمد سعيد باشا ، ناظر العدلية حسين رضا باشا ، ناظر البحرية حسن بن حسين حسني باشا ، ناظر التجارة والنافعة حسين توفيق باشا ، ناظر المالية أحمد نظيف باشا ، ناظر المعارف أحمد زيدي باشا ، ناظر الأوقاف عبد الله باشا ، كاتب أول ثريا باشا .

هرع بالورقة إلى السلطان ليأخذ موافقته ، فتأملها ملياً وأشَّر عليها من دون أن ينبس ببنت شفة ، ولكن تقطيبة مباغتة لاحت من مقرن حاجبيه ، أدخلت الرعب إلى قلب ثريا باشا ، فانسحب مسرعاً ليدعو إلى اجتماع عاجل للجنة العليا في صباح الغد .

حار في أمر التقطيبة . . هيمنت على ليله وهو يحاول النوم . . قال لنفسه واليأس يتأكَّله :

– ماذا يريد مولانا أكثر من ذلك؟ هذه أرفع لجنة ممكنة في السلطنة ، فلماذا يقطِّب؟ لماذا يغضب؟ لماذا يصمت؟

في اجتماع الصباح ، حضر أصحاب الألقاب العليا ببزاتهم الرسمية المثقلة بالأوسمة والنياشين . . كان الإرهاق قد رسم حول عينيه المحمرتين هالات رمادية وشروداً في النظرات .

قال مفتتحاً الاجتماع :

– كلفني مولانا أن نجتمع لكي نقرر معاً بماذا ستشارك الدولة

العلية في معرض شيكاغو العالمي في أميركا ، فكما تعلمون هو أكبر معرض للأمم ، تتسابق فيه لعرض منجزاتها .

نظر الرجال في وجوه بعضهم البعض ، وكأن أحدهم ينتظر الآخر لكي يبدأ بالكلام ، وحين طال الصمت والانتظار ، قال شيخ الإسلام :

– إن هذه المشاركة لهي من الأمور الطيبة المباركة ، فهي تقع في فريضة الجهاد الأكبر ، ولذلك ينبغي على الدولة العلية أن تبني في قلب المعرض مسجداً ، يكون مفتوحاً للصلاة أمام جميع المسلمين ، وعلى الجميع الالتزام بالآداب الإسلامية الصحيحة التي ينبغي مراعاتها في جميع الأوقات ، وألا يسمح لغير المسلمين بدخول المسجد ، إلا بإذن من أولياء الأمر المؤتمنين ، ولابد أن تكون أنشطة المعرض بعيدة عن كل ما يمكن أن يسيء إلى شرف وحياء المسلمات ذوات الخدور .

حرضت الجملة الأخيرة السرعسكر على الكلام ، فقال ، وكأنه يكمل جملة شيخ الإسلام :

– ولا أن يكون هناك أي نشاط يسيء للكرامة الوطنية العثمانية ، أو أن ينتقص من الجيوش السلطانية ، مهما كان ، وعن أي جهة يصدر .

نظر الجميع إلى الصدر الأعظم اللائذ بصمته ، فقال :

– تعلمون ما حصل في معرض باريس قبل ثلاثة أعوام ، حين انتهكت كرامة مصر ، وتمرغت سمعتها بالتراب ، بسبب خداع

المتعهدين وأصحاب الامتيازات ، وكيف هام مساكين المصريين في شوارع باريس وباقي المدن الفرنسية يقاسون الجوع والبرد ، وعلينا أن نكبل المتعهدين بقيود صارمة ؛ تلزمهم بالمسؤولية عن أي عثماني يذهب إلى تلك البلاد ، في سفره ، ومأكله ، ونومه ، وإعادته إلى دياره .

نظر الرجال إلى بعضهم وتبادلوا ابتسامات الرضى ، ثم وجهوا أنظارهم إلى ثريا باشا الذي بدت الخيبة على وجهه وهو يقول :

– أيها الحضرات ، كلامكم درر مكنونة ، ولكننا نتحدث هنا عن مشاركة الدولة العلية في المعرض ، ولا نقصد محلات البيع والشراء والرقص والغناء التي سيشارك فيها عثمانيون وغير عثمانيين ، هذه الأمور لا علاقة لها بالمعرض ، نحن نجتمع اليوم لنجيب عن سؤال يتعلق بالمشاركة الرسمية للدولة العلية في جناح يتضمن الصناعات والاختراعات ، وأنا أنتظر إجاباتكم على هذا السؤال .

قال الصدر الأعظم :

– أنا أقترح أن تتشكل لجنة من الدوائر المعنية بهذا الأمر ، وهي تقترح علينا ، ونحن نقرر بشأن الاقتراحات .

كانت كلمات الصدر الأعظم لسان حال شيخ الإسلام ، والسرعسكر أيضاً ، وباقي أعضاء اللجنة ، وكان ذلك بمثابة إعلان بانتهاء الاجتماع على لسان الصدر الأعظم ، فمضوا ؛ كلٌّ في حال سبيله يحصد الخيبة بعد أن أدركوا أنهم لن يقابلوا السلطان .

دخل ثريا باشا إلى مكتبه محبطاً ، إذ لم يكن بين يديه شيء يمكن أن يحمله إلى السلطان ، وبعد هنيهة من الشرود بدأ يخط أسماء اللجنة الثانية وهو مكفهر الوجه :

– ناظر التجارة والنافعة حسين توفيق باشا ، رئيساً ، ورئيس غرفة التجارة أزريان أفندي ، نائباً للرئيس ، وإبراهيم حقي بك ، من قلم المابين الهمايوني ، ومدير التجارة في وزارة التجارة والنافعة إسماعيل بيك ، ومدير الزراعة والإحصاء في وزارة التجارة والنافعة ناظم بك ، والأمين العام في وزارة الشؤون الخارجية محمد نوري بك ، وأعضاء غرفة التجارة : يني دنيا ديمدراكي أفندي ، وكزنوفا أفندي ، وفريد بك بصمجي زاده ، ومسيو ميلز من البنك العثماني .

كان اجتماع اللجنة الثانية أشبه بمنتدى لعرض المشاكل المستعصية التي يعانيها اقتصاد الدولة ، فالصادرات تقتصر على المواد الخام ، ومشاغل الحرير والأقمشة توقفت كليةً ، والبضائع البريطانية والفرنسية تغزو الأسواق ، ولا أمل في المنافسة . . وكادت الدموع أن تطفر من عيني بصمجي بك وهو يقول بصوت متهدج :

– نكاد لا نستطيع دفع أجور عمالنا ، وأنا شخصياً بدأت أنفق من مدخراتي ، وإذا لم نجد حلاً فسنلقي ببضائعنا في البوسفور ونسرِّح عمالنا ، وتجوع آلاف الأسر .

شعر ثريا باشا بالمأزق ، فهو لم يكن يريد أن يصل الحديث إلى

هذه القضايا المحرجة ، ولا أن يسمع هذا الكلام الذي يتردد على ألسنة التجار منذ سنوات عديدة ، ولا أحد يملك حلولاً له ، فعرض على المجتمعين مخطط الأرض الممنوحة للسلطنة في «جاكسون بارك» ، والتي لا تتجاوز مساحتها الأربعمائة متر مربع فقط!

فغر الجميع ، في البداية ، أفواههم دهشة من تواضع المساحة التي لا تتناسب مع حجم ومكانة الامبراطورية العثمانية ، المنتشرة على قارات العالم القديم الثلاث ، ولكنهم عادوا وأقفلوها واجمين حين سألهم ثريا باشا :

– بماذا سنملؤها أيها السادة؟

لم يقدم أيٌّ من الحاضرين مقترحاً واحداً يمكن أن يدخل البهجة إلى قلب السلطان . . كان المقترح العملي الوحيد الذي خرجوا به هو أن يكون الجناح العثماني الرسمي على شكل مبنى سبيل السلطان أحمد ، القائم عند مدخل قصر توبكابي ، وأن يلزَّم المشروع برمته إلى سعد الله أفندي ، فلديه خبرة سابقة في معرض باريس .

ولم يمض وقت طويل حتى تقدم روبرت لويس ليفي ، ممثل شركة سعد الله سهامي وشركاه بمخططات ومجسمات الجناح العثماني في «جاكسون بارك» ، والدائرة العثمانية في «ميدواي بليزانس» ، والتي وافقت عليها اللجنة ، وأعادتها إلى الشركة للتنفيذ . وهكذا ؛ أصبح أمر المعرض ، بموجب العقد ، بيد روبرت ليفي ، وشريكه سليمان البستاني ، فتعهد البستاني ببناء الجناح

العثماني في «جاكسون بارك» وفق المخططات المقررة ، ووزع ليفي خلال أيام قليلة ، وبشكل سري ، امتيازات القرية التركية في «ميدواي بليزانس» على أسماء معينة ، اختيرت لأسباب غامضة لا يعلمها إلاَّ الشركاء!

وهكذا ؛ رفع ثريا باشا هذا العبء عن كاهله ، ومضى إلى فراشه كي ينعم براحة البال ، بعد أيام عصيبة أتلفت أعصابه ، ونغصت عيشه ، فلم يعد أمامه من المهمات سوى تشكيل لجنة تنفيذية لمتابعة العمل في شيكاغو ، سيختارها بدقة ويدخلها مع تفاصيل العقد إلى السلطان .

سلسلة بلوم

شعر البروفيسور بوتنام بالإهانة الشديدة حين قدموا له سول بلوم بوظيفته الجديدة ، مديراً للامتيازات في «ميدواي بليزانس» . . لقد حدثت أمور كثيرة أثناء غيابه الطويل في رحلته العلمية إلى الغرب الأميركي .

نهض عن كرسيه بتثاقل ليصافح الزميل الجديد ، الباسم دائماً ، وقال بتجهم :

- أهلا سيد بلوم ماذا لديك؟

كان سول بلوم يحمل مخططاً ملفوفاً تحت إبطه ، فتحه بسرعة على طاولة البروفيسور وبدأ يشرح عليه :

- لقد أنجزنا جميع الأعمال المتعلقة بالامتيازات ، وأعدنا ترتيب القرى والأجنحة ، وأخضعناها لمبدأ القيمة المالية .

نظر بوتنام إلى المخطط نظرة خاطفة قبل أن يسأل باستنكار :

- أخضعتم ماذا لماذا؟!

رد بلوم ببرود :

- أخضعنا مساحات الأجنحة ومواقعها للتقييم المالي ، من

يدفع أكثر يأخذ المساحة الأهم . . ووفق المعايير التسويقة التي ارتأيناها ؛ يعد منتصف شارع الترفيه الأكثر جذباً للرواد ، ولذلك سيكون سعره أغلى من الأطراف ، وكلما ابتعدنا عن المركز قلَّ ثمن الامتياز .

رفع بوتنام رأسه ، واعتدل في جلسته ، والغضب يلوح على وجهه ومن كلماته :

– هل تقصد بأنك عبثت بسلسلتي؟ هذا ما لا أسمح به مهما كلَّف الثمن .

احتفظ بلوم بهدوئه ورسم على وجهه ابتسامة خفيفة :

– سيدي البروفيسور ، أنا لدي سلسلتي أيضاً ، وعلى كل حال لدي خبر جيد لك : لقد تطابقت سلسلتي مع سلسلتك في المنتصف .

تأمل بوتنام وجه الشاب الباسم الذي واصل كلامه بثقة مستفزَّة :

– في سلسلتك التطورية من الأسفل إلى الأعلى ، سيدي البروفيسور ، يقع الشرق الأوسط في المنتصف ، بعد الزنوج الأفارقة ، والهنود الحمر ، والآسيويين ، وقبل الهنود ، والأوروبيين .

قال البروفيسور باستهجان :

– نعم هي كذلك .

فأردف بلوم :

سوف تكون منطقة الجذب في المنتصف ، حيث تتركز القرية

التركية ، والقرية الجزائرية- التونسية ، وشوارع القاهرة ، والمعبد المصري ، والقصر المغاربي . وهي الأغلى قيمة بحسب سلسلتي المالية ، ولكنني ، وحرصاً على الصداقة ، سوف أبقي ترتيب الامتيازات كما رسمته من قبل ، أي البداية من القرية الإفريقية السوداء ، والنهاية في القريتين السويسرية والألمانية ، رغم أن هذا لا يعني شيئاً لسلسلتي المالية ، كلاهما طرفان أقل قيمة من المركز .

لفَّ سول بلوم المخطط من جديد ، وسط ذهول وصدمة البروفيسور الذي لم يعلق بشيء ، وحين هم بالمغادرة ضرب بكفه على جبينه ضربة خفيفة وقال :

- آه تذكرت! كنت أود أن أخبرك سيدي البروفيسور بأن الألمان والسويسريين أصرُّوا على أن تكون أجنحتهم في المنتصف قرب القرية التركية وشوارع القاهرة ، وأنا مضطر لقبول طلبهم طالما أنهم دفعوا المبلغ المطلوب ، وأرجو أن لا تتهمني بتحطيم سلسلتك سيدي البروفيسور ، هم أرادوا أن يكونوا في المنتصف ، ماذا أفعل؟

لوح بلوم بيده وهم يبتسم ، وانسل خارجاً .

اجتاحت الكآبة البروفيسور بوتنام . . وقف يتأمل لوحة تشارلز كوندر التي رسمها بعد حوارات مطولة ، حول مراحل الانتقال من البدائية الأولى والتوحش في أدغال إفريقيا إلى القرى الأوروبية . لقد أمضى عامه الأخير وهو يتأمل هذا الرسم الإعجازي الذي تجاوز الانطباعية الفرنسية وتفوق عليها! وكان يحلم باللحظة التي

ستتحول فيها هذه اللوحة إلى محمية طبيعية تختصر السلسلة الطويلة والبطيئة لتطور الأنواع البشرية .

لم يشعر بدخول صديقه العقيد ديفيز إلى أن وقف إلى جانبه وبدأ هو الآخر يتأمل السلسلة .

قال البروفيسور بنبرة حيادية من دون أن يحول نظره عن الصورة :

- كيف جرى ذلك؟

ردَّ العقيد بالنبرة ذاتها :

- لديهم أغلبية في لجنة الوسائل والطرق .

- والآن؟

- لاشيء ، تبقى أنت المشرف على المحتوى ، ولك الحرية المطلقة في ذلك ، أما توزيع الأجنحة ، والقضايا المالية فاتركها لهم .

- هل أتقدم باستقالتي؟

- لماذا؟

- لقد أُهنت .

- لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية . . لاتزال المشرف على المشروع وتستطيع أن تفرض معاييرك .

- أي معايير؟

- طبيعة العروض .

تنبه البروفسيور إلى هذا التفصيل وابتسم بمكر وهو يقول للعقيد :

- نعم لن تكون هناك عروض أو أنشطة تخرج عن العادات والطقوس الأصلية .

تبسم العقيد وانسل عائداً إلى مكتبه ، فيما انشغل البروفيسور بمداعبة العصافير الثلاثة التي صمدت في قفصها طيلة هذه الشهور .

ثلاث أفكار

لخّص ثريا باشا للسلطان عبد الحميد نتائج عمله طوال الفترة الماضية ؛ بالكثير من التركيز على حسن تصرفه ، وضبطه للفوضى العامة التي تجتاح أجهزة الدولة جميعها! وعرض عليه اقتراحه لأسماء لجنة العمل التنفيذية التي ستسافر إلى شيكاغو ، متوقعاً أن يوشر عليها كالعادة . . ولكن السلطان خيب أمله ، وتأمل الأسماء مليّاً ، ثم طلب من مصاحبه ، الواقف دائماً قرب الباب ، استدعاء نصرت باشا .

حضر المسؤول الأمني مسرعاً وهو يطأطئ رأسه ، فسلمه السلطان الورقة وسأله بحزم :

- من هؤلاء؟

رفع نصرت باشا رأسه ببطء وهو يقرأ :

- رئيس اللجنة المفوض إبراهيم حقي بك ، من ديوان ثريا باشا ، لا يوجد شيء بشأنه سوى أنه ماسوني!

امتقع ثريا باشا وهو ينظر إلى السلطان الذي التفت إليه مستفسراً :

- مولاي ، أنا أثق بهذا الرجل ، وهو الوحيد بين كتابنا من

أصحاب الدرجة الثانية الذي يتقن الإنكليزية بطلاقة ، وقضية انتسابه للماسونية مجرد شائعة ، ولا تؤثر على ولائه وإخلاصه ، ولو أننا استبعدنا مَنْ يتهمون بالماسونية من أجهزة الدولة لما بقي لدينا موظفين .

لم يعلق السلطان بشيء وهو ينقل بصره إلى نصرت باشا الذي تابع القراءة من الورقة :

- هوهانس أفندي بوشمان من سفارتنا في واشنطن ، لاشيء بشأنه ، ولاؤه غير مشكوك فيه ، وأيضاً رئيس المنشآت والأوسمة محمد مراد أفندي قره بيت ، والقائم بأعمال الزراعة آغوب أفندي أصدقيان ، كلهم موالون ولا شيء يثير الريبة حولهم .

هز السلطان رأسه موافقاً ، فتابع نصرت باشا :

- مولاي ؛ أيضاً جميع الذين وقعوا عقود الامتيازات في الدائرة العثمانية ماسونيين ، امتياز «المسرح الشرقي» ذهب لبطرس أنطونيوس ، وهو ماسوني من بيروت ، وامتياز «القصر الدمشقي» لنعمان أبي شعر ، وهو ماسوني من دمشق ، وامتياز «المقهى التركي» ذهب لشديد كوراني ، وهو ماسوني من جبل لبنان!

هز السلطان رأسه هزات خفيضة وقد ارتسمت على وجهه ملامح اليأس ، ثم التفت إلى ثريا باشا وهو يقول محاولاً إنهاء هذا الحوار :

- فهمت أنك تقترح أسماء لمراقبة اللجنة .

- نعم يا مولاي لابد من مراقبة كل شيء ، وأُفضِّل أن أترك

الاقتراحات بهذا الشأن لنصرت باشا .

نظر السلطان إلى نصرت باشا فقال :

- مولاي أقترح أحمد فخري بك مفوضاً ثانياً ، والنقيب أحمد ثابت بك ، والنقيب محمد توفيق بك ، فهم من رجالنا الموثوقين .

أشار السلطان برأسه لنصرت باشا الذي انحنى وانسحب من فوره ، والتفت إلى ثريا :

- نعم يا باشا هل لديك شيء آخر؟

ابتسم ثريا باشا ابتسامة أثارت فضول السلطان ، وقال وهو يخرج أوراقاً من الملف الذي يحمله :

- لقد تجاسرت يا مولاي في الفترة الماضية وطلبت من بعض رجالنا في الولايات أفكاراً جميلة حول المشاركة في معرض شيكاغو ، فحصلت على جملة كبيرة من الاقتراحات ، ولكنها جميعاً لا تستحق النظر باستثناء ثلاثة .

انفرجت أسارير السلطان وقال مثنياً على ثريا :

- أحسنت يا باشا ، أحسنت ، هات أسمعنا هذه الاقتراحات ، ولكن قبل ذلك تعال لنجلس على هذه الأرائك المريحة ، فالحديث سوف يطول كما أرى .

جلس السلطان والباشا على أرائك الصدف المعشق المكسوة بالحرير الدمشقي ، فحضرت العصائر الباردة ، وبدأ ثريا باشا بالقراءة من ورقة .

- المقترح الأول يا مولاي وردنا من مدينة جمليك من نوري بك ، وهو عبارة عن عرض لأزياء جنود وضباط الانكشارية ، مع تمثيل للمعارك التي كانوا يخوضونها بأسلحتهم وخيولهم ذاتها .

رفع ثريا باشا رأسه باسماً ليرى أثر هذا الاقتراح على السلطان ، فوجده عابساً :

- ما رأيك يامولاي؟

قال السلطان :

- ومن سيقف في الطرف الآخر من المعارك مع الإنكشارية؟

ردَّ ثريا باشا بتلقائية :

- الصليبيون طبعاً يا مولاي .

هزَّ السلطان رأسه مرات عدة وقال :

- قلت لي الصليبيين إذن؟

قال ثريا باشا :

- نعم يا مولاي .

شبك السلطان يديه إلى بطنه وهو يقول بلهجته الهادئة وصوته الجهوري الرنان :

- أنا لا أعرف من يكون نوري بك ، ولكن من المؤكد أنه شخص أبله ، بل ربما أكثر من ذلك . . يريد منا نوري بك أن نعرض أكثر الأشياء إثارة لحساسية الأوروبيين من الدولة العلية ، يريدنا أن نعيد تذكيرهم بالحروب والانتصارات التي حققناها عليهم ، في الوقت الذي يختلفون الآن على طريقة تقاسم سلطنتنا

فيما بينهم! قل لصديقك أنت أحمق يا نوري بك .

مسح ثريا باشا العرق الذي نفر من وجهه فجأة وسحب الورقة الثانية من الملف :

- الاقتراح الثاني يا مولاي من نعوم أفندي مغبغب من متصرفية جبل لبنان ، يقترح فيه إقامة معرض لصور الأراضي المقدسة كما التقطتها عدسة المصور الفرنسي بونفيس ، وأن لديه جميع الصور مكبرة ومؤطرة على أحسن ما يكون .

انفرجت أسارير السلطان وهو يتأمل في الفكرة ويدوِّرها في رأسه ، وبعد قليل من التأمل قال :

- هذا اقتراح جميل وذكي ، ولكنه لن يكون عن الأراضي المقدسة فقط ؛ بل عن الدولة العلية ، وأنا شخصياً سأشرف عليه وأختار صوره ، فكما تعلم يا باشا ؛ فإن معظم الصور التي التقطت من قبل المصورين الأوروبيين كان تهدف إلى الحط من قيمة المسلمين ، بما تقدمه من مناظر مبتذلة ومهينة ، ولذلك ؛ لابد من اعتماد صور لا تتضمن أي إهانة للشعوب الإسلامية ، وهأنذا أكلفك بأن تجمع الصور الملتقطة في أراضي الدولة العلية كافة ، وأن يفحصها خبراؤنا قبل يرسلوها إليَّ لأقر إرسالها إلى شيكاغو كي تعرض في جناح السلطنة ثم تقدم هدية إلى مكتبة الكونغرس الأميركي .

عادت الحياة إلى الباشا الذي انتقل إلى الورقة الثالثة فوراً :

- الاقتراح الثالث ؛ من راجي أفندي صيقلي ، من مدينة

عكا ، وصلنا عن طريق أحمد عزت باشا ، حول إقامة مرمح للخيول العربية الأصيلة ، وهو اقتراح فيه جميع التفاصيل المتعلقة بهذا المشروع ، إن شئت أقرأه لك يا مولاي .

بدا الاهتمام على وجه السلطان الذي قال مستعجلاً :

- اقرأ اقرأ يا ثريا باشا .

تجرأ ثريا ، حين رأى حماس السلطان ، على شرب كأس العصير الموضوع أمامه ، قبل أن يبدأ بالقراءة :

في بلادنا جميع أنواع النفائس الطبيعية والصناعية التي نفخر بها أمام الأجانب ، ومن المسلم به كذلك أن المبادرات النافعة لقيت دعم المقام العالي منذ بداية الجلوس الهمايوني الميمون ، فأدى ذلك إلى زيادتها وتطورها . ولذلك فإنني أنا العبد الضعيف تصورت وصممت إحداث مرمح للخيل العثماني غاية في الكمال والجمال ، بحيث ينال إقبال واستحسان الجميع في معرض شيكاغو . فليس هناك أي شك بأن يقابل الجميع الخيول العربية وما لها من شهرة ومهارة ، وألعاب الرمح والجريد التي اشتهر بها العرب ساكنو الخيام ، بالتقدير والإعجاب . أما البرنامج الذي تصورت تنظيم تنفيذه فهو على النحو التالي .

توقف ثريا باشا ونظر إلى السلطان الذي بدا في غاية الاهتمام ، فتابع بحماس :

المادة الأولى ؛ الخيول : سيتم تجهيز حوالي أربعين حصاناً وفرساً من أعرق الخيول العربية نسباً ، مجربة في مسابقات سابقة

تتراوح أعمارها ما بين أربع وست سنوات ، وسيكون لكلٍّ منها اسم خاص ، ويستخدم في الاهتمام بها على النحو اللازم بياطرة وسياس لهم مهارات وخبرات طويلة .

المادة الثانية ؛ الهجن : نظراً إلى كون هذه الحيوانات في أوربا أو أميركا كالعنقاء اسماً على غير مسمى ، فإنها ستلقى إقبالاً غير عادي من المتفرجين ، وسيكون جر قافلة منها من قبل طفل عربي صغير إلى الوجهة التي يريدها مثيراً للدهشة ، وسيتم اختيار ستة من هذه الهجن من أعرق الأنواع ، أما رحلها فسيكون وفق العادات العربية ، ومن أكثرها تزييناً .

المادة الثالثة ؛ الفرسان : سيقوم عدد من أمهر فرسان العرب بلعبة الجريد والسيف على ظهور الخيل ، حيث يختارون من العربان الذين يسكنون الخيام في البادية ، وتتراوح أعمارهم بين خمسة وعشرين وأربعين عاما ، ويكونون جميعهم من المعروفين بالقوة والوسامة ، ومن المدربين على إجراء مثل هذه العروض . وسيتم قبولهم بعد إجراء الاختبارات اللازمة عليهم لمعرفة مهاراتهم ، وسيخضعون لمزيد من التدريب حتى موعد السفر . وسيعودون إلى بلدانهم بعد حصولهم على مصاريف سفرهم وأداء الخدمات المطلوبة منهم وسيكون تحديد الأجور التي سيتقاضونها بصورة قطعية برضا الطرفين .

المادة الرابعة ؛ التدريب : نظراً لكون ألعاب الفروسية الخاصة بالعربان غير مرتبطة بنظام ، ولكي لا تكون هناك حركات لا

تعجب الأجانب أثناء تنفيذ هذه الألعاب ، فسيجلب الفرسان قبل السفر للقيام بالتدريب في مضمار خاص تحت إشراف معلمين ومدربين ، ويتكرر التدريب عدداً من المرات ، وسيتم إجراء بعض التعديلات على هذه الألعاب بشرط الحفاظ على القواعد الأساسية للعربان .

المادة الخامسة ؛ الأسلحة والملابس والتزيينات : لا داع لبيان مدى أهمية الملابس الفاخرة لدى أنظار العموم ، لذلك سيصار إلى صنع ملابس غاية في النفاسة والعظمة من الأقمشة الحريرية المزركشة وفق الطراز العربي ، تلقى قبولاً منقطع النظير لدى الأجانب ، تنسج أقمشتها وتصنع في مصانع حماه وحمص والشام وبيروت ، ثم يكسى بها الفرسان وكذلك الأفراد المستخدمين في سائر الخدمات ، وحاصل القول ؛ إنَّ ملابس الفرسان وكذلك أطقم الخيول والهجن ستكون في أعلى درجات الزينة والكلفة ، وإذا اقتضى الأمر يصار إلى إحضار أعداد كافية من الرايات العثمانية والأميركية كي يحملها الفرسان خلال ألعابهم .

المادة السادسة ؛ المبنى : سيتم إنشاء مبنى خشبي قوي مزين من الداخل والخارج بطول مائتي متر وعرض ثمانين متراً يعرف بـ«ميدان الخيل العثماني» لإجراء هذه الألعاب على النحو المبين في الصورة ، وتبنى على الواجهة أبراج جميلة وفق الطراز العربي ، وترفع عليها الأعلام العثمانية ، كما يركب فوق بابه الطغراء

الهمايوني والشعار العثماني الموشح .

وحين انتهى الباشا من القراءة ، عرض للسلطان مخططاً مفصلاً لشكل مرمح الخيل ، مع الرسومات التوضيحية لشكل المبنى الخشبي .

لم ير ثريا باشا السلطان عبد الحميد بهذه السعادة والأريحية منذ وقت طويل ، فانتقلت السعادة إليه ، خصوصاً أن هذه السعادة سببها حسن تصرفه .

نظر السلطان إلى الساعة ؛ إنها تقترب من الحادية عشرة ، لقد حان وقت الغداء ، وقبل أن يهم بالانصراف قال لكاتبه :

– عمل جيد يا باشا ، أرسل لعزت باشا بأن يُحضر راجي أفندي إلينا ، سوف نكافئه .

داحس والغبراء

داعبت فكرة مرمح الخيول العربية خيال راجي صيقلي منذ أن قرأ في صحيفة «الديبا» الفرنسية تقريراً عن عروض «الغرب الأميركي المتوحش» التي كان يقدمها في أوروبا منذ أربع سنوات ، أسطورة رعاة البقر ، العقيد بوفالو بل كودي .

قال لزوجته وهو يقرأ عن هوس الأوروبيين بتمثيل المعارك :

- لماذا لا يكون لدينا مرمح لتمثيل حرب «داحس والغبراء» بين عبس وذبيان؟ معركة رعاة البقر والهنود الحمر معروفة النتيجة ، وتنتهي بانتصار العقيد الأبيض ، وإبادة قبيلة الهنود ، أما حربنا فهي طويلة استمرت أربعين عاماً ، وفي كل جولة هناك منتصر جديد ، قد يكون مهزوماً في جولة سابقة .

تبسمت ميليا هازئة ، ومضت إلى المطبخ لتتابع مع خادمتها تحضير العشاء ، فقد اعتادت على الأفكار الكبيرة التي كان ذهن راجي يتفتق عنها بين حين وآخر .

استولت الفكرة عليه ، ولاحقته في صحوه ونومه ، تصورها خشبة الخلاص التي ستنتشله من كبوته ، وتعيد ترميم خرابه الكبير .

قال لعزت باشا ، بعد أن ضحكا طويلاً وهما يستعيدان قصة «ليلة المشمش» في المدرسة ، حين تدلى راجي من نافذة غرفتهما في الطابق الثاني ، لإحضار الثمار الناضجة التي اشتهياها ذات ليلة صيفية :

– عندي فكرة بمليون ليرة ذهبية .

تبسم عزت باشا بسخرية :

– مليـــون . . دفـعـــة واحـــدة يا رجل ، وأنت لم تصل إلى المشمش!

– نعم وأكثر من ذلك . . تخيل معي لو أننا مثّلنا للناس معارك «داحس والغبراء» ، كم سنكسب في ظنك؟

قال عزت باشا بعد أن استعاد جديته :

– على رسلك يا صاحبي ، صديقنا أبو خليل القباني سبقك إلى عنتر عبس ، ولم ينل من ذلك سوى التعب والديون والغربة ، دعك من هذا وفكر في شيء أكثر جدوى؟

قال راجي هازئاً :

– عن أي أبو خليل تتحدث يا رجل ، أنا أكلمك عن ميدان كبير للخيل ، ومعارك حية ، وأنت تحدثني عن تياترو!

ظهر الاهتمام على وجه عزت باشا ، فشرح راجي فكرته بتفصيل مل ، أعقبه بحديث موثق عن الأرباح التي يجنيها العقيد بوفالو بل من تمثيل المعارك بين رعاة البقر والهنود الحمر في أوروبا ، وكيف أن الملكة فيكتوريا ، بعظمتها ، حضرت أحد عروضه في لندن .

قال عزت باشا بحماس غير معهود في طبعه :

- لماذا لا تكتب مقترحاً مفصلاً بهذا المشروع وأنا أقدمه لمولانا ، فهو يبحث عن أفكار جديدة لمعرض شيكاغو .

لم يصدق راجي ما رأى وسمع ؛ عزت العابد يتحمس لموضوع ، وشيكاغو وأميركا مرة واحدة ، لا شك في أن ذلك تجاوز أحلامه بأشواط كثيرة . مضى سعيداً إلى بيته ، ولم ينم تلك الليلة حتى صاغ فكرته بخمس صفحات ، ورسم مخططاً لشكل المرمح ، بيَّن فيه موقع المنصة ومقاعد الحاضرين ، وميدان المعارك ، وتوضعات الفرسان . . ومع بزوغ خيوط الفجر حمل أوراقه وذهب بها إلى مكتب صديقه في مجلس الشورى ، وبعد أسبوع أرسل يستدعيه إلى منزله في حي بيبك ليقول له ، وهو يدعوه إلى الجلوس على أريكة دمشقية وثيرة :

- ها قد تحقق حلمك ، راجي أفندي ، وبتَّ قاب قوسين أو أدنى من استعادة ثروتك المبددة .

تبسَّم راجي بمكر وهو يقول :

- مبددة! سامحك الله . . تقول هذا وأنت تعرف القصة من أولها إلى آخرها .

رد عزت باشا هازئاً :

- نعم أعرفها ، ولذلك أقول : المبددة .

اصطنع راجي الحزن وقال ساخراً وهو يتظاهر بالخضوع :

- مبددة مبددة ، كما تريد يا باشا ، فأنا كما ترى ، أضعف

من أن أتجرأ على مخالفتك ، بل إنك تستطيع الآن إرسالي منفياً إلى سجن عكا .

ضحك عزت باشا ضحكة مجلجلة وهو يقول :

- يا لك من محتال ، يا لك من محتال .

- سأسميها شركة المرمح الحميدي عرفاناً بالجميل لمولانا .

تبسم عزت باشا بمكر وهو يقول :

- كيف لم تخطر ببالي هذه الفكرة؟!

ثم تابع بجدية :

- الخطوة الأهم الآن هي أن تستأجر مكاناً للمرمح في شيكاغو ، جميع أصحاب الامتيازات دفعوا الأجور لإدارة المعرض وبدأوا ببناء محلاتهم ، ولا أنصحك بالتأخر .

- هل أسافر إلى شيكاغو؟

- تسافر وصديقنا آلان رامزي هنا . . اذهب إليه وكلمه عن الموضوع ، وهو سيجد لك الحل .

- سأذهب إليه صباحاً .

قاطعه عزت باشا بحزم :

- غداً أنت مشغول ؛ سوف تأتيني في التاسعة صباحاً إلى مجلس الشورى ثم نذهب معاً إلى ثريا باشا في المابين ، سيقلدك مولانا نيشاناً ويعطيك رتبة ، وسوف تبلغه أنك أسميت المرمح على اسمه ، لا تنس!

في صباح اليوم التالي قلد السلطان عبد الحميد راجي أفندي

النيشان المجيدي ، ومنحه الرتبة الثالثة ، مع أن عزت باشا كان يتوقع أن تكون الرتبة الثانية التي تخوله حمل لقب بك ، ولكن الخبر الجيد كان أن السلطان قرر أن يهدي المرمح جوادين عربيين من إسطبله الخاص ، وأن يرسل اثنين من حرسه ، ممن يجيدون فنون الفروسية ، للانضمام إلى الفرسان وتدريبهم على أصول المعارك والطراد .

خرج الصديقان من قصر يلدز للاحتفاء بهذا الحدث الكبير في أحد مطاعم السمك في حي بك أوغلو ، وفي طريقهما زارا آلان رامزي في البنك العثماني ، فطلب الرجل من فوره توكيلاً رسمياً ؛ ترجمه إلى الإنكليزية ووثقه في السفارة الأميركية ، وضمه إلى ملف محكم الإغلاق أرسله مع روبرت ليفي ، مدير القرية التركية ، إلى المحامي جيمس شومان ، شريكه في شيكاغو .

رائحة الذهب

صُدم راجي بعدد السوريين الذين صادفهم في مقاهي حي بك أوغلو ، كان يعرف أغلبهم من بيروت ، بعضهم وكلاء تجاريون ذوو أسماء رنانة ، والبعض الآخر صحافيون وأدباء ، وجميعهم ممن يمتلكون حاسة شم خاصة تميز رائحة الذهب وإن كانت على مسافة آلاف الأميال ، والأغرب من كل ذلك أنهم كانوا جميعاً يعرفون قصته ؛ منذ إرساله المقترح إلى «المابين» ، وحتى حصوله على الامتياز بأمر همايوني خاص ، وتقليده النيشان المجيدي ومنحه الدرجة الثالثة!

كان المرمح الحميدي هو الأمل الوحيد المتبقي للكثير من الزاحفين إلى العاصمة ، ولذلك تحلقوا حوله ، مبدين استعدادهم لإسداء النصح ، وتقديم المشورة ، لا لشيء ، يشهد الله! وإنما ، فقط ، لكي يخرج هذا المشروع في أبهى صورة ممكنة ، خصوصاً أنه بات المشروع المفضل لمولانا السلطان!

قبل أن يلبي دعوة الصحافي خليل سركيس ، والدكتور بشارة زلزل ، للعشاء في مطعم فرنسي باذخ يطل على خليج القرن الذهبي ، كان مشروع «المرمح» في رأسه لا يتجاوز الستين رجلاً

وامرأة ؛ فكَّر فيهم فرداً فرداً ، أما الشركاء فكانت لديه أسماء محددة من عكا والناصرة ، ولكن ؛ وبعد السهرة مع سركيس وزلزل اختلف الأمر كليَّة ، فالحديث بات يدور عن شركة كبيرة في بيروت تدير العمل ، وعن مئتي مشارك ، وآلاف الليرات الذهبية .

كان خليل سركيس صحفياً مرموقاً يمتلك صحيفة «لسان الحال» ذات الشعبية الواسعة ، ومطبعة حديثة تدر عليه الكثير من الأرباح ، وكان الدكتور بشارة زلزل طبيباً مشهوراً في الولاية ، ووكيلاً تجارياً لعدد من الشركات البريطانية ، وكانت تدور حول الرجلين أقاويل غير مؤكدة عن درجات رفيعة يحتلانها في المحافل الماسونية!

أزالت السهرة عن كاهله عبئاً ثقيلاً . . لم يعد بحاجة إلى أموال ميليا وأهلها ، فقد خذلته الليلة الماضية حين طلب منها إقناع شقيقها بتمويل المشروع مقابل نسبة كبيرة من الأرباح . . لقد قالت بغضب فاجأه :

– أرجوك يا راجي أبعد مشاريعك عن أهلي ، ألا يكفي أن المرحوم والدي تحمل جميع خساراتك في بيروت ، واشترى أملاكك التي عرضتها للبيع في عكا وسجلها باسمي . . يكفي يا راجي يكفي!

طوال السنوات العشر التي جمعته بها لم يرها غاضبة وحازمة في موقفها كما رآها الليلة الماضية ، لطالما وقفت إلى جانبه وخلصته من ورطات مالية كادت أن تودي به إلى السجن ، وكثيراً ما احتضنته في لحظات ضعفه ويأسه ، وشدَّت من أزره ودعته

للتفاؤل بقادم الأيام . لم يفهم سبب غضبتها التي انفجرت فجأة على غير المتوقع . . حاول أن يعرف السبب ، فذكرت له بشكل مبهم اسم إملي سرسق ، فأقسم لها أن ما ربطه بها مجرد صداقة قديمة لا أكثر .

قال في نفسه : ما الذي ذكَّرها بإملي سرسق بعد عامين من الرحيل عن بيروت؟! هل كانت تعرف بالقصة وصمتت كل هذه المدة؟ أم أن جديداً طرأ؟ حاول أن يفهم ، فبدلت الحديث وعادت ترجوه أن يبتعد عن أموال أهلها .

شرح لها أن قصده من إشراك عائلتها معه هو رد الجميل ، لأن المشروع رابح رابح ، ويمكن أن يجلب ثروة ، وأنه لا يريد لغريب أن يشاركه فيها ، ومع ذلك لم ينجح في إقناعها البتة رغم كل المغريات التي ساقها ، فقد كانت تراه شخصاً خاسراً مُبذِّراً يعيش في الأحلام .

حين عاد من السهرة مع سركيس وزلزل ؛ أيقظها من النوم وهو منتشياً بالخمرة وأحلام النجاح ، وقال لها :

– لم أعد بحاجة إليك ، وسوف أسدد لك جميع الأموال التي دفعها والدك . . غداً سأسافر إلى بيروت ، وأنت إن شئت ابقي هنا أو عودي بالأولاد إلى عكا ، قد تطول غيبتي .

نظرت إليه وعادت إلى نومها من دون أن تعلق بكلمة واحدة ، فقد اعتادت على أحلام اليقظة التي لم تر حلماً واحداً تحقق منها!

في اليوم التالي توجه إلى صديقه عزت باشا ليحيطه علماً

بأجواء السهرة مع سركيس وزلزل ، قبل أن يسافر معهما إلى بيروت ، فتمنى له النجاح وأوصاه بأن يطلعه بالبرق على كل شيء قبل أن يوقع على أي ورقة .

وعلى متن المركب النمساوي ؛ كان راجي يحدِّث شريكيه الجديدين خلال الأوقات التي كانت تجمعهم على مائدة الطعام ، عن الأهمية غير العادية لشكل المرمح ، والتي تتقدم على مهارة الفرسان ، وحسن أداء الممثلين والممثلات في إنجاح المشروع . ولكي يثبت لهما فكرته ؛ وصف بإسهاب عرس شقيقه شبلي ، الذي تحول إلى حديث الناس في فلسطين لسنوات طويلة ، وكيف سار موكب العروس بصحبة ألف فارس على خيولهم المطهمة ، من ميناء حيفا إلى سور عكا وهم يهزجون ويلعبون بالسيوف والبنادق؟ وكيف اجتمع الناس من المدينة والأرياف البعيدة لمشاهدة لعبة رمي الجريد التي نصبت مضاربها ورواياتها قرب السور .

قال لهما :

– الناس يهوون الصراع . . يحبون الفوز ويكرهون الخسارة ، سنجسد لهم في كل يوم معركة بين فريقين : فريق قبيلة عبس ، وفريق قبيلة ذبيان ، وسيكون هنالك فارس منتصر وآخر مهزوم .

قال خليل سركيس وهو يضحك ، محاولاً إنهاء هذا الحديث الطويل الممل :

– سنترك لك أمور المرمح ، ونعفيك من الانشغال بالأمور الإدارية!

بدا الامتعاض فجأة على وجه بشارة زلزل الذي انسحب من الجلسة متذرعاً بالذهاب إلى الحمام ، وبعد قليل قرع باب كبينة راجي ودعاه لشرب القهوة في مقهى الطابق العلوي ، وهناك قال له من دون مقدمات :

– إياك أن ترضى بما قاله خليل سركيس ، يريد أن يحملك أعباء العمل كاملة ويتفرغ هو للإدارة والأعمال الورقية . . لا تقبل بذلك ينبغي أن تشارك في الإدارة ، وأن نساعدك في أمور المرمح .

لم يفهم راجي الرسالة ، فقال بامتعاض وهو يهم بالانصراف :

– ولماذا لم تقل ذلك حين كنا جالسين ثلاثتنا؟

ردَّ زلزل على الفور :

– أردت تنبيهك فقط وأنت حر .

لم يلتفت راجي خلفه وهو يغادر ، فقد سقط زلزل من عينيه مرة واحدة ، وأصبح يتحاشاه أينما رآه .

وفي بيروت أمضى خمسة أيام من الجدل الممض حول تأسيس الشركة ، وكان يطلع عزت باشا على البنود أولاً بأول ، ووصلت النقاشات في بعض اللحظات إلى حافة الهاوية ، ولكنها تكللت مع صباح اليوم السادس باتفاق حظي برضى الجميع ، إذ اختير خليل سركيس ، رئيساً ، وراجي صيقلي ، نائباً للرئيس ، وبشارة زلزل ، كاتبا للرئاسة ، ونجيب سرسق ، بنكياً ، ونخلة بستروس ، أميناً للصندوق ، وأمين شكور وعبدالله صائغ عضوان مساعدان .

وتنازل راجي عن حقوق الامتياز الشخصية لاسم الشركة الوليدة لقاء ألفي ليرة ذهبية فرنسية ، دفعت له نقداً مع أربعة عشر في المائة من صافي الأرباح ، وتأسست شركة محاصة برأسمال مال محدود بلغ عشرين ألف ليرة ذهبية إنكليزية ، تعادل مائة ألف دولار أميركي ، قسمت إلى ست حصص وزعت بين أعضاء لجنة الرئاسة ، باستثناء راجي ، وبعض هؤلاء قسَّموا حصصهم إلى أسهم وطرحوها للاكتتاب العام ، فأقبل المئات حاملين مدخراتهم ، واشتروا بها الأسهم المعروضة للبيع .

وفور إشهار الشركة في جريدة «لسان الحال» ، توجه راجي إلى دمشق لابتياع الأزياء ، والعدد ، والخيام ، والسجاد ، وبدأت الإعلانات تصدر تباعاً حول حاجة شركة «المرمح الحميدي» في بيروت إلى فرسان ، وخيول ، وراقصين ، وممثلين ، وسفينة شحن ، لنقل كل ذلك إلى شيكاغو في الرابع والعشرين من آذار ١٨٩٣ .

قمل لين العريكة

فور وصوله إلى شيكاغو اتصل روبرت ليفي بالمحامي جيمس شومان فوجده قد رتب له كل شيء ، من السكن ، إلى المكتب ، إلى طاقم السكرتارية المكون من فتاتين رائعتي الجمال ، ومراسل نشيط متحفز لأي أمر ، وفي صباح اليوم التالي توجها معاً إلى مبنى إدارة المعرض ، فقابلا مدير الامتيازات سول بلوم الذي عرض لهما موقع القرية التركية في شارع الترفيه ، ومساحتها ، ومخططها المبدئي ، ثم توجهوا ثلاثتهم إلى مكتب البروفيسور بوتنام مدير قسم الانتروبولوجيا للحصول على توجيهاته!

رحب بوتنام بليفي ، محاولاً قدر المستطاع تجاهل بلوم ، وشرح له ولشومان باستفاضة فلسفة الفكرة التي قام عليها شارع الترفيه في «ميدواي بليزانس» قبل أن يتدخل المال ، ولفت نظره إلى ضرورة الالتزام بشروط العقد التي تتضمن فقرات واضحة عن الطبيعة الفلكلورية للعروض ، وحتمية التزامها بفكرة عادات وتقاليد الشعوب الأصلية .

وقبل أن يختتم كلامه سأل ليفي ، وهو يسترق نظرة خاطفة إلى بلوم ، عن أنواع الجبنة التي تنتج في السلطنة العثمانية .

استغرب ليفي السؤال ، فقال وهو يحاول أن يتذكر ويجمع أفكاره :

- هناك جبنة بيضاء تركمانية لذيذة جداً ، وطبعاً جبنة حلومي .

قال البروفسور :

- الجبنة التركمانية كم تصمد قبل أن تفسد؟

ردَّ ليفي :

- أظن أن الأمر لا يتعدى أياماً قليلة ؛ ربما يومين أو ثلاثة ، ولكن يمكن تمليحها فتصمد أكثر .

تبسَّم البروفيسور وهو يقول :

- والأخرى الحلومي ، أليس كذلك؟ من ينتجها وكم تصمد؟

قال ليفي وهو يعصر أفكاره :

- نعم الحلومي ينتجها القبارصة والسوريون ، وتصمد فترة أطول ، ربما أسابيع أو حتى أشهراً إن كانت مملحة .

سأل البروفيسور بزهو :

- لا يوجد لديكم من ينتج الأجبان الصفراء أليس كذلك؟

ردَّ ليفي :

- ربما تجد لدى شعوب البلقان جبنة تسمى القشقوان ، لونها قريب من الاصفرار ؛ وتصمد أكثر من عام .

قال البروفيسور وهو يحرك يديه بطريقة تساعده على شرح فكرته :

– البلقان ، يعني أوروبا ، فالجبنة الصفراء ، هي نتاج تطور اجتماعي لم تبلغه الأمم خارج القارة الأوروبية ، ولذلك حاولنا أن نوضح هذا الأمر لزائري «الميدواي» ، ولكن يبدو أن هناك معوقات ، سنحاول أن نتغلب عليها عن طريق الإعلانات ، والنشرات التي توضح هذه الأفكار .

لم يتوقف روبرت ليفي كثيراً عند كلمات البروفيسور بوتنام ، وبدا الأمر له نوعاً من الهذيان الذي لا يعنيه .

تبسم سول بلوم وهو يقول للبروفيسور بسخرية مبطنة :

– لقد سألت الجزائريين والتوانسة عن الجبنة فقالوا إنهم لا ينتجونها ، فإذن هذا المقياس لا ينطبق عليهم ، فهم يعيشون في بيوت مبنية بالحجر ، ولديهم موسيقى ورقص متطور ، رغم أنهم لا يصنعون الجبنة ، هل لديك مثل آخر لإثبات فكرتك حضرة البروفيسور؟

أزعجت اللهجة الساخرة البروفيسور بوتنام فقال بلهجة تقريرية :

– دعك من مَثَل الجبنة يا سيد بلوم ، فيبدو أنه لم يقنعك ، فقط أريدك أن تجيب عن أسئلتي : برأيك لماذا مات ملايين الهنود الحمر في المكسيك والبرازيل وغواتيمالا وغيرها من بلدان أميركا اللاتينية بمجرد إصابتهم بالانفلونزا أو الإسهالات المعوية؟

ردَّ بلوم وعلى وجهه الابتسامة الساخرة ذاتها :

– لا أعلم .

فقال البروفيسور وقد شعر بالانتصار :

- لأن بنيتهم الضعيفة غير المتطورة لم تستطع احتمال أمراض الرجل الأوروبي ، الأبيض يصاب في العام الواحد بعشر نزلات برد من دون أن تشكل أي خطر عليه ، بينما نزلة برد واحدة قتلت الملايين في المكسيك!

جال البروفيسور ببصره في وجوه ضيوفه محاولاً فهم نظراتهم المستغربة ، وحين لاحظ أن أحداً منهم لم يعلق بشيء ؛ نهض باتجاه قفص العصافير واحتضنه بكفيه وهو يقول :

- هذا العصفور هو الناجي الوحيد من بين خمسة عصافير كانت تعيش في هذا القفص ، والسبب قوة منقاره القادر على تناول أي طعام ، حتى لو كان من أقسى الحبوب ، بينما ماتت العصافير الأخرى بسبب ضعف مناقيرها .

أطبق الصمت على الضيوف وهم يتابعون حركات العصفور المذعور الذي كان يحاول كسر أخشاب القفص بمنقاره الكبير الغريب الذي يشبه منقار ببغاء . ظن البروفيسور أن فكرته لم تصل إليهم ، فعاد إلى كرسيه وتابع بلهجة تقريرية :

- لقد ثبت أن قمل الأوروبي هو أقوى أنواع القمل على الإطلاق ، والسبب أنه تطور مع الإنسان الأوروبي واكتسب منه قوة التطور ، وحين وصل القمل الأوروبي إلى رؤوس سكان المستعمرات البريطانية في جزر ساندويش وغينيا الجديدة وفيجي ، تسبب بآلام وأمراض كثيرة لهم ، ولم يحتملوه ، بينما كان قمل

هذه المستعمرات يموت بعد يومين أو ثلاثة على رؤوس الأوروبيين ، لماذا؟ لأنه ضعيف ، وغير متطور ، بل إنه كان لين العريكة سهل السحق .

شعر روبرت ليفي بالضجر من هذا الجدل الغريب المقرف ، فطلب الاستئذان بدعوى المشاغل ، وقال وهو يودع البروفيسور إنه سيأتي في وقت آخر لمتابعة النقاش «الشائق» . كانت حواسه تتجه كلية نحو ميناء نيويورك ، إذ وصل البناؤون والنجارون الدمشقيون قبل أيام ، ولا تزال تعترضهم مشاكل مع الجمارك بسبب غرابة المعدات والأدوات التي أحضروها .

تبادل الرجال الثلاثة نظرات الدهشة والاستغراب وهم يغادرون مكتب البروفيسور ، وعند الباب الخارجي لمبنى الإدارة قال سول بلوم قبل أن يودع ليفي وشومان :

– هل تعلم سيد ليفي ، أنا أظن أن فارساً عربياً رشيقاً يمتطي صهوة جواده ، هو أكثر تطوراً من فلاح سويسري يمضي يومه بدأب في تحضير قالب جبنة الغروييز .

لم يفهم ليفي تماماً ما قاله بلوم ، ولكنه تذكر فجأة «المرمح الحميدي» والرسالة التي حملها من آلان رامزي ، فالتفت إلى شومان وقال له :

– حسناً أن السيد بلوم ذكّرنا بالفرسان العرب . . عندي موضوع هام أريد أن أبحثه معكما . . لنجد لنا مطعماً نتناول فيه الغداء .

على مائدة أحد مطاعم «الكوشر» القريبة ؛ شرح ليفي فكرة «المرمح» كما فهمها من آلان رامزي ، ففوجئ الرجلان بها ، وأبديا إعجابهما الشديد بنباهتها .

كان مقترح بلوم أن يستأجر فوراً قطعة الأرض المقابلة لقرية داهومي الإفريقية ، بعد أن فشلت مساعي إحضار قرية الزولو ، وأن المكان لا يزال شاغراً لم يستأجره أحد ، وهي فرصة لن تتكرر .

انتبه روبرت ليفي إلى أنه غير مخول باستئجار الأرض ، وتذكر أنه يحمل أوراقاً تتعلق بهذا الموضوع . . تفحص حقيبته وأخرج منها ظرفاً عليه اسم جيمس شومان .

- يا إلهي كيف نسيت!

أخذ شومان الظرف وفضه ، وبدأ يقرأ رسالة من آلان رامزي يشرح فيها قصة المرمح ، وأنه حصل على توكيل ، أرفقه بالرسالة ، من صاحب الامتياز راجي صيقلي .

قال شومان وهو يعرض لهم الأوراق :

- شكراً لكم أيها السادة ، هذا توكيل من السيد رامزي بأن أتولى قانونياً البحث عن مكان مناسب لـ«المرمح الحميدي» في شيكاغو .

قال بلوم :

- المكان جاهز .

تصنَّع شومان جدية مفاجئة :

- أشكرك سيد بلوم ، سوف نستشير شركاءنا ونطرح عليهم

الموضوع ، فالقرار يعود لأصحاب المشروع أولاً وأخيراً .

قال بلوم بامتعاض وهو يهم بالمغادرة :

– تشرفنا سيد ليفي وسيد شومان ، وشكراً على الغداء ، حين تقررون بشأن قطعة الأرض فمكتبي معروف لكما .

حاول شومان أن يشرح لليفي ؛ أنه من عدم الحصافة اتخاذ قرار من دون رؤية أكثر من خيار ، ولكن ليفي لم يكن لديه مزاج للدخول في جدل حول هذه القضية . . كان موضوع القرية التركية يستولي على حواسه كافة ، فقال متبرماً :

– اسمع سيد شومان ، أنا لست معنياً بهذا الأمر ، وهو يخص صديقنا آلان رامزي ، وهو وكّلك بالأمر ، ولديَّ من الهموم والمشاغل ما يفيض عن حاجتي!

بعد أيام من ذلك الحديث وصل إبراهيم حقي ولجنته إلى شيكاغو يصحبهم مؤذن للمسجد ، وفرقة موسيقية عسكرية صغيرة ، وكان ليفي قد أعد لهم سكناً ملائماً وسط المدينة ، عن طريق شومان طبعاً ، وجهز خروفاً أبيض كالثلج ، انتُقي بعناية من قطيع كبير يتكون من خمسة آلاف رأس ، لكي ينحر عند وضع حجر الأساس للمبنى العثماني في «جاكسون بارك» .

سلسلة حسن الرماح

صرف راجي شهر كانون الأول ١٨٩٢ وهو يتنقل بين مزارع الخيول ، من مرج ابن عامر إلى الناصرة إلى طبريا إلى حوران ، وفي كل مرة كانت تواجهه المشكلة نفسها ؛ اضطراب في سلسلة نسب المعروض للبيع أو انقطاعها ، فاتخذ هذه المنقصة حجة قوية عند المساومة على الأثمان!

ولكنه يحتاج إلى عدد من الخيول الأصيلة مع مشجرات أنسابها المهورة بأختام أهل الخبرة ، وهذه الخيول للأسف الشديد ، غير معروضة للبيع!

أمضى الليلة الأولى من زيارته إلى سنجق حوران في بيت خوري قرية خسفين ، على ضفة وادي الرقّاد الغربية . . لم ينم أكثر من ساعتين ، ربما لتغيُّر فراشه ، أو بسبب الرياح العاتية التي تهب في الخارج وتسبب ضجيجاً مقلقاً .

عند بزوغ الشمس حضر دليل من القرية لكي يوصله إلى مزرعة الشيخ ابن سُمَير ، على الضفة المقابلة من الوادي . . ابن سُمَير هذا صاحب إحدى سلالات الخيول الأصيلة التي تسمى بـ«السُمرية» .

كان الجو صاحياً على غير المعتاد ، ومدى الرؤية يصل إلى ما بعد جبل الشيخ شمالاً ، وجبال الجليل غرباً ، وجبال عجلون جنوباً . . رياح الليلة الماضية جلت السماء من الغيوم ، ولكن لسعات البرد قارسة ، وقطعان البقر الجولاني الأحمر تمضي بخفة إلى مراعيها في وهاد الأودية ، وفي البعيد أسراب الأغنام المتجهة إلى الغدران ، وفي الأفق أحراج السنديان والبلوط والزعرور التي تكلل خطاً متصلاً من التلال المتجهة جنوباً .

منذ زمن بعيد لم يستيقظ بمثل هذا النشاط ، وكأنه شرب ترياقاً أعاد له خفة الشباب . . لم يحدث أن رأى هذا المنظر المبهج البديع من هذه الزاوية . . كثيراً ما رآه من الناصرة حين كان يقضي بعض أيام الصيف في بيوت أخواله .

مضى به الدليل من طريق وعرة زلقة ؛ كادت أن تطيح به وبالجواد في أحد الشقوق البازلتية . . بعد أن استعاد توازنه رمق الدليل متسائلاً ، فأشار إلى البعيد ، حيث تلتمع ظهور حيوانات بنية تحت أشعة الشمس المائلة . . لم يستطع أن يميزها جيداً ، فقال الدليل :

– هي خنازير برية في طريق عودتها إلى جحورها الصخرية ، اخترت هذا الطريق لكي لا تفاجئنا بأنيابها .

اجتازا جسراً مقنطراً خارج أراضي خسفين عند فم الوادي السحيق ، قادهما إلى أرض موحلة صعبة العبور ، ثم إلى صبَّة بازلتية مستوية كأن يد حجار سوَّتها ، وما هي إلاَّ ساعة واحدة

حتى كانا في مزرعة ابن سُمير .

رحب به الشيخ ترحيباً حاراً حين سمع اسم والده ، وتأسف كثيراً على موته المفاجئ ، وعندما عرف غرضه اصطحبه إلى الإصطبل وحدثه بإسهاب عن سلالة الحمداني السمري المتصلة بكحيلة العجوز عن طريق الأم .

لم يتجرأ على سؤال الشيخ عن البيع والشراء ، فقد كان يتحدث عن الجياد والأفراس والأمهار كما يتحدث المرء عن أشقائه وأبنائه .

على مائدة الغداء الدسم أخبره الحاضرون ، بعد أن عرفوا قصته ، عن حسن الرماح ، أحد مجانين الخيل في البلاد . . كان المتحدثون يضحكون بقهقهات عالية وهم يتفكّهون بنوادره الكثيرة ، وإحداها أنه يطعم خيوله شعيراً محمصاً بسمن عربي ؛ وهو لا يكاد يجد ما يقيم أوده ، وأن عروسه فرت من بيته بعد أسبوع واحد من زواجهما ؛ حين بحثت عنه ذات يوم ووجدته يكلِّم فرسه!

حين هدأت عاصفة الضحك قال أحد الجالسين :

- إنصافاً للرجل ، هو واحد من قلة قليلة لاتزال تحفظ أنساب الخيول الأصيلة .

وأردف آخر :

- هو صاحب القول الفصل إذا اختلف المتخاصمون على نسب حصان أو فرس في عموم الولاية .

سأل عن بيته فقالوا :

- في نهاية الدغل المنحدر إلى الوادي .

امتطى راجي جواده ومضى نحو الدغل البعيد يتبعه الدليل . . كانت الشمس تميل نحو الغروب ولسعات البرد بدأت تقرصه ، رأى من بعيد رجلاً يداعب مهرة صغيرة ، فمضى نحوه ، وحين اقترب منه ، وجده أربعينياً ، نحيفاً ، بعينين قلقتين ، وشارب أسود بش في وجهه ، فبادره من فوق ظهر الجواد :

- كيف حالك يا حسن؟

رد حسن الرماح وهو يواصل مداعبة المهر :

- نحمد الله .

نزل عن الجواد ، فهرع الدليل وقبض على اللجام واقتاده بعيداً .

نبهت حركة الدليل حسن إلى أن الرجل مهم ، فترك مداعبة المهر ووقف مرتبكاً لا يدري ما يفعل .

قال راجي :

- أخبروني أن لديك فرساً تريد بيعها .

نظر حسن إلى الرجل باشّاً :

- لم نتعرف على حضرتك؟

قال راجي :

- أنا ابن أبي شبلي النصراوي .

وما إن سمع الاسم حتى رفع يديه إلى الأعلى وهو يقول بحماس :

- يا هلا بالبك ابن البك ، أبوك صاحب فضل على هذه الرقبة . . أهلا وسهلاً . لنمض إلى الغرفة .

في طريقهم قال لراجي :

لازلت أذكر ذلك اليوم الذي استقبلنا فيه والدك نحن وخيولنا لثلاثة أيام في عرس شقيقك الأكبر ، لقد احتاج إلى خمسة من عمال الفعالة في نهاية العرس ؛ كي يزيلوا طبقات اللبن والسمن والبرغل المتراكمة في أرض المضافة!

قال راجي ساخراً :

- إنه عامل واحد جعله الناس خمسة!

- ولكنه عرس لم تشهده البلاد من قبل . . رأيت الناس يحضرون إلى بيتكم ، ويخرجون بصحون اللحم والأرز والبرغل ، والسمن العربي يسيل من أكواعهم .

سأله راجي وهو يهم بالجلوس على فراش وثير ، محاولاً تغيير الحديث عن السمن العربي ، والبرغل ، واللحم المطبوخ باللبن ؛ المثير لغثيانه بعد وليمة ابن سُمير الدسمة :

- أخبرني يا حسن عن الكحائل الخمس .

قال حسن بعد أن سكب فنجان القهوة المرَّة وقدمه لضيفه وهو يبتسم :

- هي الأفراس الخمس ذات العيون الكُحل التي اصطفاها الملك النعمان من بين خيول العرب ، ومنها ولدت جميع السلالات التي نعرفها اليوم : البيض ، والمعنقات ، والدعج ،

والسعد ، والبتر ، والجرز ، والتياس ، والجلف ، والمخلديات ، والنوفليات ، والسمحات ، والجلفات ، والفريجات ، والبعيرات ، والجعيثينيات ، والكبيشات ، والخلاويات ، والبطايات ، والودنات ، والمريعيات .

كان حسن يعود للحديث عن كُحيلة العجوز في كل مرة يأتي فيها على ذكر صفة من صفات السلالات التي عددها ، وكان راجي يزداد ضيقاً من كثرة الأسماء والتفاصيل ، فنهض وخرج من الغرفة يتبعه حسن . .

وقف راجي أمام المهرة الصغيرة الدهماء وتأملها باهتمام كبير . . لم يتمالك نفسه وهو يرى عينيها الجميلتين ، فجثا على ركبتيه وعانقها وصار يداعب خصلات الشعر المنسدلة على ناصيتها . . لم تذكِّره إلا بابنته الصغيرة ، فضمها بقوة وقد طفرت من عينه دمعة اشتياق .

قال حسن ، متابعاً حديثه السابق :

– من نسل الكحائل الخمس ، ولدت مهرة في عجيج معركة بين قبيلتين من قبائل العرب ، ولحقت بأمها التي فر صاحبها من عمق الجزيرة إلى ضفة الفرات ، وهي ابنة ساعة واحدة!

وحين وصلوا إلى المضارب اقتربت لتلتقط ضرع أمها ، فانصدعت قوائمها وسقطت بلا حراك ، وظنها الفارس ميتة فألقى بها بعيداً . . وفي الليل ، سمعت عجوز القبيلة كلبها ينبح على بنات آوى ، فخرجت بعصاها ، وإذا به يجر بأسنانه مهرة صغيرة

تلتمع عيونها بالدموع ، فضربت الضواري العاويات ، وأرضعتها من ثدي شاتها حتى غدت قادرة على قضم العشب ، وفي الثالثة من عمرها اشتهر أمرها وظهر وبهر ، فسعى شيوخ القبائل لاقتناء أمهارها ، ودعيت منذ ذلك الوقت باسم «كحيلة العجوز» ، ومن لا ينتسب لهذه الفرس لا يعول عليه!

ساد الصمت بعد أن أنهى حسن القصة . . كان راجي يحاول بصعوبة بالغة أن يربط بين الأسماء والأحداث التي سمعها ، فأردف حسن وقد علت وجهه ابتسامة غامضة :

- والآن ؛ سأبوح لك بسر! من بين الخيول التي رأيتها جميعاً لن تجد أصفى نسباً من هذه المهرة ، وأمها نجمة ، ووالدها الدبران .

وفي موجة من الحماس هرع حسن إلى صندوق خشبي في زاوية الغرفة وأخرج لفافتين صفراوين ، وقال لراجي وهو يريه الأسماء والأختام :

- هذه سلسلة نسب نجمة ، وهذه سلسلة نسب الدبران ، لقد بحثت في جميع مضارب العرب عن فحل لفرسي الكُحيلة الدعجاء ينتمي إلى سلالة الصقلاوي نجيم الصبح ، فوجدته بعد عناء وبحث طويلين عند الشيخ راشد المعجل في وادي السرحان ، حين كان عائداً من حمص إلى نجد ، فولدت نجمة من هذا الزواج المبارك ، أما الدبران فقد أخذته من أمه ، عبية لبدة ، مهراً لا يتجاوز الأسبوعين ، واستبدلته بفرسي الكحيلة الدعجاء ، ولست بنادم .

لم يفهم راجي شيئاً من سلسلة النسب التي ذكرها حسن لهذه المهرة الصغيرة ، ولكنه أدرك أن الأمر اقتضى منه جهداً ليس باليسير ، فأن يضحي بفرس أصيلة من سلالة الكحائل الخمس مقابل مهر صغير ، فهذا يعني أن المهر يستحق هذا العناء .

هبط حسن وراجي طريقاً وعرة ، وانحدرا في واد صغير تتكاثف فيه أشجار البلوط والزعرور ، قبل أن يصلا إلى بيت قديم شاسع مسور بحجارة البازلت ، وسط حرج من السنديان المعمِّر .

على ساكف الباب البازلتي كان ثمة صليب بيزنطي كبير منحوت ، وتحته كتابة يونانية قرأ منها (Σέργιος μεγέθους) ، «سيرجيوس المعظَّم» ، ثم فهم عبارة أخرى من الكتابة «في أيام البطريق الأمجد» .

أدرك راجي أن المبنى دير قديم مهجور على اسم القديس الجندي سيرجيوس ، من أيام أحد ملوك الغساسنة ، فصلَّب قبل أن يلج البوابة المعقودة ، وفي الداخل كانت النباتات البرية تغطي فسحة الدير ، وثمة أعمدة محطمة تتناثر قرب قاعدة تمثال بازلتي عليها صورة أربعة جياد تجر عربة يركبها رجل تحيط برأسه هالة من أشعة الشمس ، كان رسم الجياد لافتاً في دقته ، وخصوصاً رؤوسها المشرئبة . . في زاوية قصية من الجدار الخارجي لإحدى الغرف ؛ رأى كتابة مطموسة ، حاول قراءة حروفها فلم يستطع . . كان قد نسي الكثير من المفردات اليونانية التي تعلمها في مدرسة دير الروم الأرثوذوكس الابتدائية ، قبل أن ينتقل إلى مدارس بيروت

وجبل لبنان حيث تعلم الإنكليزية والفرنسية إلى جانب العربية .

على جدار صومعة الراهب في الجهة المقابلة للتمثال ، لفت نظره درج صاعد إلى الأعلى تنبثق درجاته من الجدار من دون دعامات ظاهرة . . هندسة الدرج الغريبة أنسته الخيول ومعرض شيكاغو ، صعد الدرجة الأولى بحذر شديد ، كانت متينة وثابته بشكل لافت ، ثم صعد الثانية فالثالثة . . . إلى أن وصل إلى السقف . . كان المنظر من الأعلى ساحراً بجماله ، فقد أعطته الشمس المائلة تدرجاً في الألوان يشبه لوحات الفنانين الإيطاليين ، في الخلف غابة سنديان تغطي منحدر الوادي ، وأمامه انبسط سهل صغير ينتهي بمنحدر سحيق ، وفي الأفق تدرجات رمادية وزرقاء لجبال بعيدة .

نظر من فوق إلى فسحة الدير فوجد حسناً باسماً وهو يقبض على رسنين لجواد أدهم وفرس شهباء أخذا لبه من النظرة الأولى .

في مرجة عشب غير بعيدة عن الدير امتطى هو الدبران ، وامتطى حسن نجمة ، دارا حول بعضهما البعض ، وتسابقا قليلاً ، ووصلا إلى غدير ماء تتجمع مياهه من شلال شحيح ينبع من بين صخور البازلت .

لم يعرف راجي كيف مضى الوقت ، ولا متى هبط الليل ، ولكنه تنبه فجأة إلى لسعات البرد القارس ، وإلى حسن وهو يقول له مشيراً إلى قبة السماء المشتعلة بالنجوم :

– ذاك هو نجم الدبران ، هل ترى ذلك النجم الأحمر المشع .

بحث راجي قليلاً في برج الثور فرآه .

قال حسن :

- كانت نجمة الثريا فتاة جميلة وشابة ، هل تراها؟ إنها ذلك العنقود الأبيض المشع هناك أمام الدبران .

بحث راجي فوجدها .

أردف حسن :

- أبهرت النجمة الدبران منذ أن وقعت عينه عليها وهو يرعى أغنامه ، فعزم على خطبتها . . كان يريد أحداً ما لكي يرافقه ويخطبها له ، فلم يجد إلاّ القمر . . طلب من القمر أن يفعل ما في وسعه لتحقيق مراده ، ولكنها رفضت وقالت : ما أصنع بهذا الفقير المعدم؟ فرجع القمر وأخبر الدبران بما حدث ، لكن الدبران أصرّ على الزواج بها ، ولم يكن يملك إلاّ غنماً ، فأخذه كله إلى الثريا لكي تقبل به!

وأشار حسن إلى عنقود نجمي يظهر قريباً من الدبران وقال :

- تلك هي الأغنام! هل تراها؟

قال راجي وهو يحدق في السماء :

- نعم .

قال حسن وهو يشير بيده في الاتجاه نفسه :

- النجمان القريبان من الدبران هما كلباه اللذان اصطحبهما معه حين قاد الأغنام إليها . . وهكذا صار الدبران يتبع النجمة في السماء إلى الأبد ومعه قطيع أغنامه . . يتبعها أينما حلت ، وحيثما ذهبت ، فأصبح رمزاً للوفاء ، وغدت هي رمزاً للغدر .

قال راجي محاولاً وضع حد لهذا الحديث الطويل المتشعب ؛ وقد بدا وكأنه حديث بلا نهاية ولا ضفاف :

- كم تريد ثمناً لهما؟

حدق حسن في وجه راجي محاولاً التحقق من ملامحه في ضوء القمر ، ثم قال بنبرة حاسمة :

- من قال لك إنني أريد بيعهما؟

شعر راجي بالارتباك . . ظن أن هذا العرض المطول منذ الظهيرة وسيلة للتسويق والتشويق ورفع الثمن :

- لم يقل لي أحد ، ولكنني أبحث عن خيول للشراء .

قال حسن :

- ليسا للبيع . . ولولا معزَّة والدك ما سمحت لك برؤيتهما .

كاد راجي أن ينفجر غضباً ، وتمنى للحظة أن يهوي بقبضته على وجه حسن ، غير أنه تمالك نفسه وقال بإصرار :

- أريدهما! واطلب ما تشاء ، وإن لم تشأ البيع أجرنيهما لمدة عام ، ولك مئتي ليرة ذهبية .

استغرب حسن الطلب :

- أؤجرك إياهما! وهل تظن أنني أستطيع أن أفارقهما لحظة . . روحي معلقة بهما .

قال راجي بحماس بعد أن كسب جولة في التفاوض :

- ولن تغادرهما لحظة ، ستبقى معهما أينما ذهبا ، وستسافر معهما إلى أميركا .

قال حسن بذهول :

- كيف؟

ردَّ راجي :

- لا عليك ستكون الأمور على مايرام ، ولكن أريد منك أن تنتقي لي عشرة أفراس وجياد أصيلة معها سلاسل أنسابها المصدقة .

قال حسن :

- وإذا لم نعثر على بائعين نكتفي بالإيجار؟

نظر راجي إلى حسن بإعجاب وقد انتبه إلى فكرة كانت غائبة عنه :

- نعم نكتفي ، وصاحب الجواد يستطيع أن يسافر معنا .

خيارات شومان

أبرق جيمس شومان إلى آلان رامزي في الأستانة يعلمه بأنه استلم التوكيل وباشر العمل ، فردَّ عليه رامزي بأن شركاء جدداً انضموا إلى المشروع ، وبات الحديث يدور عن خمسين جواداً وأكثر من مائة ممثل وممثلة ، وأن عليه أن يأخذ هذه الأعداد بعين الاعتبار .

لم يشأ شومان أن يشرك أحداً معه في البحث عن أرض مناسبة ، فقد علمته التجربة المهنية القاسية ، حين بدأ محامياً مساعداً في «شركة أبراهامز» في نيويورك ، أن يُبقي أي أمر يخص العمل محصوراً به وحده!

منذ تلك الأيام تنبه أصحاب شركات المحاماة إلى موهبته في الاختفاء من المشهد ، وعبقريته في إدارة القضايا والتحكم في مساراتها من دون أن يشعر أحد به ، كان ينتمي إلى ذلك النوع من الأشخاص الذين لا تعلق صورتهم في الذاكرة ، ولا يتركون أي أثر إن حضروا أحد الاجتماعات العامة أو الخاصة ، ويمكن نسيانهم فور غيابهم عن العين .

زار خلسة دائرة مسح الأراضي ، وحدد ثلاثة أمكنة تصلح

لإقامة «المرمح الحميدي» عليها ، الأول في «ميدواي بليزانس» ، والثاني في «غارفيلد بارك» ، والثالث في «بيسبول غراوند» .

المكان الأول ؛ هو الذي عرضه عليه سول بلوم ، ويقع عند مدخل شارع الترفيه من الجهة الغربية ، وقد أدرك منذ اللحظة الأولى أن بلوم يريد من وراء هذا العرض السهل ، خلق مركز ثقل ثان لمنطقته الترفيهية يدعم ويقوِّي به الأقسام الغربية البعيدة عن أرض المعرض .

والمكان الثاني ؛ يقع في حديقة غارفيلد ، وميزته أنه قريب من وسط المدينة التجاري ، ومن السهل الوصول إليه ، ولكنه بعيد عن المعرض ، وإقامة المرمح فيه تقتضي حملة إعلانية بسيطة .

أما المكان الثالث ؛ فهو ملعب لكرة القدم وسباق الدراجات ، يقع عند تقاطع الشارع الخامس والثلاثين وزقاق ونتورث ، على مسافة أربعة أميال إلى الجهة الشمالية الغربية من المعرض . . صحيح أنه بعيد ، ولكنه يملك ميزة المساحة التي تتيح بناء عنابر للخيول ، وللعمال ، وميداناً للطِّراد ، بالإضافة إلى وجود مدرج جاهز للمشاهدين ، ولكنه يحتاج إلى حملة إعلانية ضخمة تشرح للناس برنامجه وموقعه بالضبط .

تعلم شومان ألاّ يقدم لزبائنه العرض الأفضل في بداية التعامل ، كان يعتقد بأن وصول الزبون إلى الهدف النهائي يحتاج إلى جهد ، ومعادل الجهد الملموس هو المال ، وقد علمته التجارب أن الموكِّلين ليسوا من طينة واحدة ، فهناك موكِّلون أذكياء يريدون

معرفة كل خطوة يخطوها المحامي ، ويسألون عن أبعاد وخلفيات أي تطور في القضية ، وهناك موكِّلون تمنعهم انشغالاتهم من متابعة حراك القضية ، ولكنهم يمكن أن يتدخلوا في أي لحظة ، وثمة موكِّلون يسلمون أمرهم للمحامي ويثقون به ثقة مطلقة ، ولا يسعون لمعرفة ما يفعل ، وهؤلاء هم زبائنه المفضلون!

وقع اختياره على «أرض البيسبول» ، كخيار أول . . زار المكان في البداية كأي هاوٍ ، فلم يرَ أي مباريات أو سباقات . . استقصى عن صاحب الملعب ، فقيل له إن اسمه جيمس هارت ، وثمة صديق مشترك بينهما .

حين جمعهما الصديق المشترك في جلسة بدت عفوية ، تظاهر بأنه لا يعرف الملعب ، ولبى دعوة جيمس هارت لزيارته ، وكان هناك سباق للدراجات . . بعد أقل من أسبوع دعا هارت إلى شرب الجعة في نادٍ جديد يرتاده رجال الأعمال ، والدخول إليه للمشتركين وضيوفهم ، وبعد أن شرب الكأس الثالثة من البيرة ، قال هارت :

– هل تتخيل سيد شومان أن هذه المساحة الكبيرة من الأرض لا تدر عليَّ أكثر من خمسين دولاراً في الأسبوع .

فوجئ شومان بالرقم ، كان يتوقع مبلغاً أكبر من هذا بكثير ، فقال :

– لابد أنك تمزح .

قال هارت وقد لعبت برأسه نشوة البيرة :

- لا أمزح مطلقاً ، لدي ستة شهور على الأقل لا يجري فيها شيء بسبب برودة الطقس ، وستة شهور أخرى لا تجري فيها أكثر من عشر مباريات لكرة القدم ، وخمس سباقات للدراجات ، وعليك أن تقسِّم عائد ذلك على السنة بكاملها ، مع أجور العمال والحراس ، فتكون النتيجة خمسين دولاراً لي في الأسبوع . . تخيَّل خمسون دولاراً!

قال جملته الأخيرة وانفجر ضاحكاً ، فردَّ شومان ببرود :

- أفهم من كلامك أن برنامج نشاط ملعبك يبدأ مع أيار ، وينتهي مع بداية شهر تشرين الثاني .

- تقريباً .

أدرك شومان المأزق الذي وقع فيه ، ومع ذلك لم يشأ التراجع عن خططه .

- سيد هارت ماذا تقول إن ضاعفت لك دخلك خلال المعرض عشرة أضعاف؟

وضع هارت الكأس على الطاولة ، ونظر إلى وجه شومان محاولاً التحقق من جدية ما يقول :

- هل أنت جاد سيد شومان؟

- نعم .

- كيف؟

- أرجو أن تحدد لي أوقات فراغ الملعب خلال الشهور الستة التي تصادف المعرض الكولومبي ، وأنا سأملاؤها لك مقابل

خمسين في المائة من الأرباح .

قال هارت بعد أن استعاد توازنه :

- خمسون في المائة كثير سيد شومان أليس كذلك؟

ردَّ شومان بحزم :

- إذن سأبحث عن خيار آخر ، فتجار الفراغ كثر في هذه البلاد .

ضحك هارت بشكل هيستيري وهو يقول :

- ولكنك لن تجد بجودة فراغي ، فراغنا هو الأفضل .

اكتفى شومان بابتسامة خفيفة ، ورفع الكأس على نخب الفراغ .

في اليوم التالي وقع جيمس هارت فريقاً أول ، وجيمس شومان وكيلاً لآلان رامزي وشركاه فريقاً ثانياً ، على عقد تضمن الفقرات التالية :

أولاً ؛ أن تبقى مواعيد لعب الكرة وسباق الدراجات كما هي ، وأن تتم عروض التمثيل خارج أوقات هذين النشاطين .

ثانياً ؛ أن تجري عروض التمثيل على مسافة مائتي قدم من أماكن المتفرجين على أقرب تقدير . وهذا الشرط كانت الغاية منه أن لا تحفر سنابك الخيل المرج الأخضر .

ثالثاً ؛ للفريق الثاني حق بيع المرطبات في أوقات التمثيل ، مقابل مبلغ مقطوع قدره ألف دولار .

رابعاً ؛ جميع ما يحتاجه المرمح من أبنية وخدمات

وإصطبلات تقع تكلفته على الطرف الثاني .

خامساً ؛ أن يدفع الطرف الثاني للطرف الأول مبلغاً قدره أربعة آلاف دولار أميركي لقاء استئجار الملعب ، ضمن الشروط السابقة ، مدة سبعة شهور .

طلب آلان رامزي قيمة العقد من شركة «المرمح الحميدي» في بيروت مضافاً إليها اثنان في المائة عمولته ، فحولها له نجيب سرسق ، وبدوره حوَّل هو قيمة العقد إلى شومان الذي خصم نصفه ، وأعطى جيمس هارت النصف الآخر مع إمضاء بأنه قبض كامل المبلغ!

ضغائن بيروت

عاد راجي إلى بيروت أواسط شباط ١٨٩٣ ، مصطحباً خمساً وأربعين فرساً وجواداً ، بينها ست أفراس وثمانية جياد من السلالات النبيلة المعروفة باسم الكحائل الخمس ، كلها موثقة بحجج قانونية صفراء ، ومصدقة من الوالي ، وممهورة بأختام خبراء وأرباب هذه الحرفة .

بذل حسن الرماح خلال شهرين الكثير من الجهد ليجمع هذا العدد ، فلا أحد يبيع هذه السلالات مهما غلا الثمن . اعتمد في إقناع المترددين من أصحاب الخيول على اسم راجي ابن أبي شبلي النصراوي ، والوعود التي قطعها على نفسه بشأن الذهاب والعودة وتكاليف السفر والأجور .

من بين الفرسان الذين أقنعهم حسن بالمشاركة من دون خيولهم ؛ الأمير حمزة وشقيقه الأمير علي ، من أمراء بني حرفوش في بعلبك ، وقد تكوَّن فريق الأمير حمزة من خمسة فرسان ، جميعهم من العائلات النبيلة في البقاع ، هوايتهم اللعب والطراد ورمي الجريد ، وكان الأمر بالنسبة لهم نزهة ، ورغبة في اكتشاف المجهول .

ومن دمشق اختار راجي فارسين من خيرة من ركب الخيول ، أحدهما يدعى أحمد الخضري ، سبق أن أشاد به السلطان عبد الحميد أثناء أحد الاستعراضات ، وقلده نيشاناً من الدرجة الرابعة ، والآخر يدعى سليم جاويش ، وهو من نخبة أدباء دمشق ، ومن الأثرياء المولعين بهذه الرياضة ، ويقال إنه كان يستطيع تبديل ثيابه وهو واقف على ظهر جواد يجري بأقصى سرعته .

وانضم للفريق أيضاً سمعان صيقلي ، شقيق راجي الذي اكتفى من ميراث والده بالأفراس الخمسة التي كانت في اصطبل «سرايا عكا» ، وهو مَن اختار فريق فرسان الناصرة ، وفريق فرسان جبل نابلس ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً رئيس من دير القمر يدعى أنطون وردة ، بصحبته عدد من فرسان جبل لبنان ، وعدد آخر من السياس والمؤدين والمؤديات الذين نجحوا في امتحان القبول ، بعد أن انتشرت الإعلانات في صحف ولايتي سورية وبيروت .

في اليوم الأخير من معسكر التدريب ؛ وقبل الرحيل في قافلة ضخمة إلى بيروت ، نظم راجي عرضاً مجانياً لأهل دمشق ؛ ألبس فيه الفرسان والنساء والخيول والهجن أزهى الحلل التي اشتراها من أسواق المدينة القديمة ، وعرض أمام أركان الولاية ، وضباط المشيرية ، وأكثر من عشرين ألف مشاهد تجمعوا في المرج الأخضر ، قرب تكية السلطان سليمان القانوني ، قصة الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان .

تبارز الرجال ولعبوا بالجريد ، وصرخت النسوة وهزجن بمختلف أنواع الأهازيج الحماسية ، حتى ظن البعض أنها حرب حقيقة ،

تشبه الوقائع التي كان الحكواتية يجهدون أنفسم في وصفها ، وفي ختام العرض انهالت التقاريض على راجي وفريقه من مختلف أدباء المدينة ، فرد عليهم بكلمة بليغة بالتركية ، مراعاة لكبار الضباط الذين حضروا العرض ، وأبدوا الكثير من الثناء على الفرسان ، وبعد يومين نشرت جريدة «سورية» الرسمية تغطية شاملة لوقائع هذا العرض المدهش الذي لم تشهد دمشق مثيلاً له من قبل ، بما في ذلك نص كلمة راجي أفندي مترجمة إلى العربية ، والتي قرأها الشركاء في بيروت بقليل من المبالاة ، إذ كانت الضغائن قد بدأت تأكل القلوب وتهدد بتدمير الآمال التي عقدت على هذه الشركة .

في فترة غيابه الطويلة انقسم المساهمون إلى معسكرين ، أحدهما يميل إلى خليل سركيس والآخر إلى نجيب سرسق ، أحد أكبر المرابين في الولاية ، والذي لم يأل جهداً في تقويض الأرض من تحت أقدام سركيس ، ليتسلم هو رئاسة الشركة . . لم يقتنع سرسق ومن معه لحظة واحدة بقدرة سركيس على إدارة الشركة ، وكانت مراهنتهم على الوقت ، إذ كانوا يظنون بأن سركيس سيتنازل عن الرئاسة لجملة من الأسباب ، أهمها انشغاله بجريدة «لسان الحال» والمطبعة الأدبية ، في حين كان رأي الفريق الآخر بأن خليل سركيس هو الذي يمنح الثقة للمساهمين ، وجلهم من اليتامى والأرامل الذين أودعوا أموالهم بسبب اسمه وسمعته .

بدأ فريق سرسق ، بعد أيام من إشهار الشركة ، بالتحريض

ضد سركيس ، وبث الشائعات حول جهله بأمور المال والبنوك والتحويلات ، فيما كان فريق سركيس يذكّر الناس بجشع سرسق ، وقصص الربا الفاحش الذي كان يتقاضاه من المقترضين . . وبذلك تعطلت آلية اتخاذ القرار في اللجنة ، إذ كانت المادة الخامسة من قانون الشركة تنص على أن القرارات بأي شأن يخص المرمح تتخذ بإجماع اللجنة ، وإذا تساوت الأصوات فصوت الرئيس هو المرجّح .

حاول راجي فور عودته من دمشق ، أن يجمع لجنة الرئاسة في مكان واحد ، فلم يفلح . . جلس مع طرفي المشكلة كل على حدة ، فلاحظ أن شقة الخلاف واسعة ؛ ولا قدرة له على ردمها . . أبرق إلى عزت باشا شارحاً المأزق الذي دخلت فيه الشركة ، فنصحه بأن يهددهم بالانسحاب ، وأن الامتياز ، في النهاية ، هدية شخصية له من مولانا السلطان!

نجح التهديد في وقف الحرب المعلنة التي كانت حديث بيروت ودمشق ، ولكنه لم ينجح في تنقية القلوب ، فكان ذلك نذير شؤم أقض مضجعه وحرمه من النوم ، فمن غير المعقول أن تقلع شركة وتنجح وفيها كل هذه الضغائن .

قال راجي لشقيقه سمعان وهو يحزم أغراضه استعداداً للسفر إلى الأستانة :

– أبرق لي حول أي جديد يحصل ، أنا ذاهب لأرى ميليا والأولاد ، وسأحاول إقناع عزت باشا ، لعلّه يشتري الشركة وننتهي من هذا الكابوس اللعين .

قال سمعان وقد اعتراه اليأس واغروقت عيناه بالدموع :

- ولكن سرسق حول الأموال لآلان رامزي ، ووقع عقد السفينة مع مستر سميث ، لقد قُضي الأمر يا راجي ، ولم يعد ثمة مهرب .

ربَّت راجي على كتف شقيقه ، وقال محاولاً التخفيف عنه :

- لا عليك يا رجل لن يختلف شيء ، ولن أخذلك مع أصدقائك ، إن أقنعنا أحداً بشراء الشركة كان بها ، وإن لم ننجح فتبقى الأمور على حالها ، ولن يعلم أحد بالأمر غيرنا!

رفض عزت باشا فكرة شراء الشركة رفضاً قاطعاً ، حين فاتحه بها راجي فور وصوله إلى الأستانة ، وقال بحزم :

- أنا الذي توسطت لك في موضوع امتياز المرمح عند السلطان ، وإذا عدت واشتريته ، فسيبدو الأمر غير نزيه ، بل ربما يُفسَّر بأنه احتيال رخيص لا يليق بي!

على متن سينثيانا

وقف حسن الرماح في مؤخرة السفينة يتأمل صعود الشمس من خلف الأفق اللازوردي ، غير مصدق هذه الزرقة العميقة التي تحيط به من كل جانب . . هاله حجم الأشرعة الثلاثة التي لم يكن يتخيلها بهذه الضخامة حين رأى السفينة رابضة في ميناء جونية للمرة الأولى .

بعد أن أتعبه التحديق إلى الأشرعة والأعمدة الشاهقة والمدخنة الهائلة . . انشغل بمراقبة تلاشي الحلقات اللولبية ، المنبثقة من أسفل السفينة ، على صفحة المياه . . حاول أن يرى الشيء الذي يتسبب بحدوث ذلك ، ولكنه لم يفلح ، فقد كان في منطقة لا يمكن لنظره الوصول إليها . . مطَّ جسده إلى خارج الدرابزين ، وحاول أن ينحني أكثر ، ولكن أحد البحارة الإنكليز هرع إليه وأمسكه من كتفيه وجذبه بقوة ، وهو يبربر غاضباً بكلام غير مفهوم . . حاول أن يتملص منه فلم يفلح ، كان البحار الضخم الذي اصطبغ وجهه بألوان شتى ، مصمماً على اقتياده إلى قبطان السفينة .

صرخ حسن بأعلى صوته :

- اتركني ، ماذا تريد مني؟

غير أن البحار ردَّ بصوت أعلى وهو يحاول جرَّ حسن باتجاه غرفة القبطان .

تجمع الركاب على الصياح وأحاطوا بالرجلين من جميع الجهات ، ولم يلبث أن ظهر القبطان ببزته المميزة ، ولحيته البيضاء ، ووقفته المهيبة خلف الجموع ، فأفسحوا له في المجال لكي يقف على حقيقة الجلبة .

بدأ البحار يشرح الموضوع وهو يشير إلى حسن ، وعلى وجهه ملامح الغضب والذهول ، وما هي إلا لحظات حتى حضر بشارة زلزل ، فبادر القبطان بالإنكليزية :

- ما الذي يجري أيها القبطان؟

- قبضنا على هذا الشخص وهو يحاول أن يلقي بنفسه في عرض البحر .

التفت زلزل إلى حسن وسأله بغضب :

- يقول إنك كنت تحاول أن تلقي بنفسك في البحر ، ماذا دهاك هل جننت؟

قال حسن بعد أن خلص نفسه من قبضتي البحار :

- إنه يكذب ، كل ما فعلته أنني كنت أنظر إلى دوائر المياه التي تخرج من السفينة .

اعتذر زلزل من القبطان بشدة ، وشكره على اهتمامه ، ووعده بعدم تكرار الأمر ، ثم التفت إلى المتجمعين وطلب منهم العودة

إلى أعمالهم ، وحين انصرفوا قال لحسن بلؤم :

- اسمع يا هذا ، لا تفضحنا أمام الأجانب .

- هو اعتدى علي ودفعني أمام الناس .

- هو لا يعتدي عليك ، ومن تكون لكي يفتري عليك . . أنت لا شيء هل فهمت ، أنت لا شيء ، إياك أن تصدق نفسك بأنك شيء مهم حين ورطتنا أمس بالعوارض الخشبية ، لقد مرَّرت الموضوع لكيلا أخلق مشكلة مع المساهمين في بيروت ، ولكن هنا على ظهر السفينة ، وهناك في أميركا ؛ عليك بالسمع والطاعة ، والامتثال للأوامر فقط ، وإلا ألقيتك فعلاً بالماء . . لا تفضحنا أمام الأجانب فهمت . هيا انصرف من أمامي ، هيا .

نظر حسن إلى بشارة زلزل من الأسفل إلى الأعلى وهو يغالب دمعتين سقطتا من عينيه رغماً عنه ، تمنى لو يطوح بنفسه حقاً في عرض البحر ليغسل هذه الإهانة ، لكنه غالب نفسه ومضى كسيراً إلى حظيرة الخيول .

أقلعت سينثيانا منتصف ليل التاسع والعشرين من آذار من ميناء جونية ، بعد يوم مضن أمضاه حسن مع النجارين في إعداد أماكن الخيول . . حظائر السفينة لا تصلح إلا لمواشي الذبح التي يعتمد بعضها على البعض الآخر في التوازن والوقوف والمكوث ، أما أماكن الخيول فتختلف كلياً .

صممت سينثيانا كسفينة مخصصة لشحن الماشية ، يضم طابقها الأسفل أربع حظائر كبيرة ، تتسع الواحدة لمائة وخمسين

رأس غنم أو خمسين رأس بقر . وبينما خصصت الحظيرتان الثالثة والرابعة ، الواقعتان في مؤخرة السفينة ، للخيول والجمال والحمير والماشية ، فرشت الحظيرتان الأولى والثانية بالأسرَّة . . الأولى خصصت لفريق المرمح ، والثانية لباقي المسافرين ، وكانت هنالك غرف لكبار المسافرين من الدرجتين الأولى والثانية في الطابق الأعلى .

فوجئ السيَّاس السبعة عشر بجموح الخيول لحظة إدخالها الى الحظيرة العارية من كل شيء ، والمقسومة بحاجز معدني إلى أربع غرف متساوية المساحة ، تفصل بينها ممرات تتسع لمرور شخص واحد . . لم يعرف أحد سبب هذا الجموح الذي أدخل الرعب إلى قلوب جميع من كانوا على متن السفينة في تلك اللحظة . لم تهدأ الخيول ولم يتوقف صهيلها المرتفع ، حتى هدأ الدبران لحظة رأى حسن الرماح حاملاً مخلاةً فيها شعيراً محمصاً بقليل من الزبدة العربية ، ومخلوطاً بشيء من العسل .

أطعم حسن بيديه الدبران ونجمة ، وهو يهزج لهما ويبسم ، وعند ذلك فرش السيَّاس أرض الحظيرة بطبقة سميكة من القش والأعشاب والنباتات اليابسة التي أحضروها من الأحراش .

قال حسن للجنة السفينة التي حضرت إلى الحظيرة للوقوف على هذا الضجيج ، وأيده في قوله السُّياس جميعاً :

– هذا لا يكفي ، لا بد من وضع الخيول داخل فواصل خشبية متينة ، وإلاَّ فلن تهدأ ، وستمنعكم من النوم ، وقد يموت

بعضها إن لم يكن أكثرها .

قال زلزل بامتعاض :

- الآن تكلمت! لم يبق معنا سوى يوم واحد ، والسفينة ستقلع صباح الغد ، ماذا سنفعل برأيك؟

قال حسن :

- لا بد من الفواصل .

كان بين الحاضرين ميشيل بسترس ، شقيق نخلة بسترس ، الذي غاب بضع ساعات وأحضر عشرين نجاراً يحملون عوارض خشبية سميكة ، قسموا فيها الحظيرة إلى خمس وأربعين حجرة صغيرة .

مع انتصاف الليل اكتمل صعود الركاب ، وانتظمت الخيول في حجراتها ، والجمال والحمير وبعض رؤوس الماعز والغنم في الحظيرة الثانية ، وقبل شروق الشمس انطلقت السفينة إلى عرض البحر معلنة عن ذلك بصوت الزمير المرتفع .

استيقظ حسن على صهيل الدبران وضجيج سنابكه ، هرع إليه لكي يهدئ من جموحه . . كانت الخيول جميعها واقفة ، سأل أحد السيَّاس عن الأمر فقيل له إنها نامت واقفة ساعتين أو ثلاث ساعات إلا الدبران فلم ينم لحظة واحدة ، فراح حسن يمسد ناصيته ورقبته ويهمس في أذنيه وهو يضحك ، والدبران مخفض رأسه كأن الحديث راقه .

لم يسافر على متن سينثيانا أي من أعضاء لجنة رئاسة

الشركة ، باستثناء الدكتور بشارة زلزل ، الذي كلفته اللجنة بالإشراف على السفينة ، لم يشأ أي من أعضاء اللجنة السفر على متن سفينة مخصصة للماشية . . رئيس الشركة خليل سركيس سافر بصحبة نائبه راجي صيقلي ، وأمين شكور ، وعبد الله صائغ ، على متن سفينة بريطانية من ميناء ساوثامبتون ، ونجيب سرسق ، ونخلة بسترس ، سافرا على متن سفينة ألمانية من ميناء نابولي .

بعد أن انتهت مشكلة حسن الرماح مع البحار البريطاني ؛ علت الجلبة في المكان ، وبدأ الكثيرون بتناول الإفطار ضمن مجموعات دائرية على الأرض .

قدم له مقبل رغيف خبز مدهون بالزبدة العربية والعسل ، فرفض أن يأخذه ، كانت كلمات بشارة زلزل القاسية قد حفرت عميقاً في نفسه . . لم يكلمه أحد بهذه النبرة من قبل ، مضى إلى أغراضه وأخرج غليوناً طويلاً وكيساً من الدخان ، وعاد إلى مؤخرة السفينة ليجلس في ظل أحد الأشرعة ويبدأ بالتدخين .

ظلُّ السيدة

من بين فريق المرمح ، المكون من مائة وثلاثين فرداً ، كانت هنالك عشرون امرأة ، معظمهن بدويات ، ومن بين ركاب السفينة الآخرين المائة وخمسة وخمسين كانت ثمة امرأة واحدة هي الأديبة هنا كوراني ، ممثلة نساء سورية في المؤتمر النسائي العالمي .

قبل شهور عدة خاضت السيدة كوراني معركة صحافية مع كاتبة سورية تقيم في القاهرة تدعى زينب فواز حول عمل المرأة ، يومها كتبت هنا كوراني في جريدة «لسان الحال» أن «المساواة لا تعني أن تعمل المرأة عمل الرجل ، فالنساء مفطورات على الواجبات المنزلية ، ولا يجوز لهن أن يتخطينها ، لأنها سنة قد سنها الله لهن ، ولو تجاوزنها لتغير نظام الكون ، وتبدلت نواميس الطبيعة» .

ولم يمر هذا المقال مرور الكرام ؛ إذ ردت عليها زينب فواز في جريدة «النيل» بأن «الرجل والمرأة متساويان بالمنزلة العقلية ، وعضوان في جسم الهيئة الاجتماعية ، لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فما المانع إذن من اشتراك المرأة في أعمال الرجال ، وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها ، متى كانت جديرة تؤدي ما ندبت إليه» .

والمفارقة الكبرى كانت في سفر السيدة كوراني للمشاركة في

المؤتمر النسائي العالمي في شيكاغو ، وامتناع السيدة فواز لأسباب تتعلق بأمر الشرع ، كما قالت للسيدة بالمر ، رئيسة المؤتمر ، في رسالة الاعتذار التي أرسلتها!

لم يعرف أحد سبب اعتذار السيدات السوريات الأخريات اللواتي تلقين دعوات للمؤتمر ، ولكن الكثيرين رجحوا أن يعود ذلك إلى الخشية من انتقام السلطات ، حيث شاع في الأرجاء خبر غضب السلطان من رسالة الدعوة إلى والدته بريستو قادين!

وحدها الآنسة أستير أزهري التي عينها المؤتمر النسائي عضواً في اللجنة الإعلامية ، نشرت في مجلة «الفتاة» مقالة غامضة حول سبب امتناعها عن السفر ، ذكرت فيها أنها أبلغت رئيسة المؤتمر السيدة بيرتا بالمر بجملة من الاشتراطات ، مطالبة إياها بتلبيتها ، وإلا فإنها لن تشارك!

كان شرط أستير أزهري- الذي لم تنشره في مقالها- هو ألاَّ تتم دعوة هنا كوراني ، لأنها أكبر عدو للمرأة وحقوقها! وأرفقت برسالتها للسيدة بالمر مقتطفات مترجمة من مقالات للسيدة كوراني منشورة في صحف بيروت تنتقص من حقوق المرأة!

ولكن السيدة بالمر ، المشغولة بمئات الرسائل والدعوات ، قالت أمام مساعداتها بعد أن قرأت رسائل أستير أزهري أكثر من مرة :

- لقد سئمت من النساء السوريات اللواتي أضعن الكثير من الوقت والورق والحبر في توافه لم أفهمها ، ولم أدرك المغزى منها .

ثم تابعت بغضب :

– ما علاقة الآنسة أزهري بالدعوات؟ وكيف تسمح لنفسها بالتدخل في شؤون لا تعنيها؟

فكان أن حسمت أمرها ، وخطَّت رسالة إلى هنا كوراني تكلفها فيها بإلقاء كلمة نساء سورية أمام المؤتمر ، وترجوها أن تجمع ما تستطيع من مشغولات يدوية لعرضها في المبنى النسائي .

حين كان حسن يمط جسده إلى خارج السفينة ، كانت السيدة كوراني تتمشى بلباسها الطويل المميز بألوانه القرمزية والبيضاء قرب الدرابزين . . لم يخطر في بالها لحظة واحدة أنه سيفعل شيئاً غير اعتيادي ، وحين رأت البحار يجره من كتفه إلى كابينة القبطان ، حاولت أن تكلمه وتشرح له الأمر ، ولكن الناس تجمعوا ، وحدث ما حدث!

قالت لحسن حين رأته جالساً وحيداً في مؤخرة السفينة ، غارقاً في حزنه ينفت التبغ من غليونه بشراهة :

– لا ينبغي أن تغضب من القبطان والبحار فهما كانا حريصين على حياتك ، ولم يقولا شيئاً يجرحك .

قال حسن لهذه السيدة التي انتصبت أمامه وغمرته بظلها الطويل :

– لست غاضباً من الإنكليز بل حزين على نفسي!

– لماذا؟

– لم أكن مضطراً لهذا السفر ، وكنت في غنى عن كل ما حصل لي بسببه .

لم تشأ السيدة كوراني أن تسأله عن سبب غضبه ، واكتفت بنظرة عابرة إلى تقاطيع وجهه الحزين ، قبل أن تمضي في سبيلها لتختفي بين المسافرين الغارقين بتأمل زرقة البحر .

في الأيام التالية ، لم ير أحد حسن الرماح يكلم ركاب السفينة . . كانت كلمات بشارة زلزل قد حفرت عميقاً في نفسه وطوحت بها في مهاوي الكآبة ، ولكنه مع حزنه العميق ؛ كان يشعر بلذة غامضة وهو يستعيد في مخيلته صورة الوجه الجميل للسيدة الجميلة التي اهتمت لأمره ، أو حين يراها من بعيد تتمشى وحيدة على سطح السفينه!

موارنة وأرثوذكس

أصرَّ راجي على السفر إلى شيكاغو بصحبة خليل سركيس ، بعد أن تناهت إلى سمعه تلميحات عن تحالف أرثوذكسي يجمعه مع نجيب سرسق ونخلة بسترس ، إذ لم يتوقف سركيس لحظة واحدة عن الشكوى من أنه يواجه صخرة أرثوذكسية في لجنة إدارة الشركة .

كان على راجي ، منذ وصوله إلى بيروت ، أن يثبت في كل لحظة براءته من هذه التهمة الراسخة في وجدان سركيس وشكور والصائغ وزلزل . افترض ، في البداية ، أن سركيس تخلص من هذه الأفكار بعد تحوله إلى الكنيسة الإنجيلية على يد معلمه ووالد زوجته الشيخ بطرس البستاني ، ولكن افتراضه لم يكن في محله ، فقد أثبتت الشهور الأخيرة بأنه لايزال ينظر إلى العالم بعينين مارونيتين ، وأنه يحمل الأفكار ذاتها التي كان أسلافه يحملونها عن الروم الأرثوذكس ، بوصفهم كتلة صماء عنيدة غير قابلة للاختراق!

المرة الأولى التي اختبر فيها راجي المشاعر الطائفية ، كانت في المدرسة الداخلية التي يديرها الآباء اللعازريون الكاثوليك ، وكان

ذلك بعد أن حضر بطريرك الطائفة المارونية مار بولس بطرس الأول إلى المدرسة لإقامة قداس خيري ، لابساً الزي الكهنوتي الأحمر والتاج المميز .

في تلك الليلة ؛ ربط راجي مخدته على رأسه ؛ فبدت مثل تاج البطريرك ، ووضع على كتفيه غطاء النوم ، وحمل بيده مقشة ودخل إلى المهجع الكبير ، حيث ينام معظم الطلاب ، وصار يكرر عبارات القداس بطريقة مبالغ فيها ، فاستيقظ زملاؤه وبدأوا يضحكون ويصفقون ويرمونه بالمخدات ، فما كان من الراهب المناوب إلاَّ أن قبض عليه متلبساً ، وأحاله إلى مجلس تأديبي اجتمع في صباح اليوم التالي .

ولولا تدخل إسكندر بك توبني ، ترجمان متصرفية جبل لبنان وصديق والده ، لطرد من المدرسة ، لأن الإدارة لم تقتنع بأنه كان يعبث ببراءة ، من دون أن يكون لعبثه أي بعد طائفي .

بعد مجلس التأديب أفهمه إسكندر بك أنه أرثوذكسي ، وأن عليه تجنب أي تصرف يمكن أن يثير حفيظة الموارنة الكاثوليك ، لأنهم لن يصفحوا عنه في المرة الثانية!

لم يفهم تماماً التحذير ، فكل ما كان يعلق في ذاكرته عن الطائفة الأرثوذكسية يرتبط بسعي والده الدائم للحصول على لقب زعيم الروم الأرثوذكس في فلسطين . . كان يدهشه ذلك الدأب على بذل التبرعات السخية للكنيسة ولفقراء الطائفة لكي يحتفظ بهذا اللقب العزيز على قلبه ، خصوصاً بعد أن ظهر له منافس في

الناصرة يدعى طنوس قعوار ، نجح في استقطاب بعض الأكليروس إلى صفه .

كان قعوار دائم التبجح بأنه من نسل ملوك الغساسنة ، وليس مثل أسعد صيقلي ، الذي لا يعرف من نسبه أبعد من اسم والد جده ، صيقلي السيوف والخناجر في القدس القديمة! ربما في هذه المرحلة اخترع بعض صياقلة الناصرة أسطورة جدهم الحاج الروسي جرمانوس وزوجته الحاجة كاترينا ، المنحدرين من نسل نبلاء سان بطرسبورغ!

كانت الأرثوذكسية في وعي راجي مجرد صراع على الزعامة ، ولم يشعر لحظة واحدة بأن الأمر يعنيه ، أو يساوي لديه أي شيء ، فصديق عمره كان مسلماً ، وأخواله كانوا كاثوليك ، وحين تزوج لم يكلف نفسه عناء السؤال عن طائفة عروسه ، حتى طرح عليه والدها سؤالاً عن المكان الذي يفضله لإقامة إكليل الزفاف ، في كنيسة الروم الكاثوليك أم الروم الأرثوذكس؟ يومها وقع اختياره على كنيسة الكاثوليك لأنها أجمل وأكبر من كنيسة الأرثوذكس ، وليس لأي سبب آخر .

صحيح أنه كان صاحب فكرة تأسيس جمعية خيرية للروم الأرثوذكس في عكا قبل أكثر من اثني عشر عاماً ، ولكن هدفه كان رعاية فرقته المسرحية التي أراد من خلال عروضها جعل مساءات عكا أقل وحشة!

طوال الرحلة الطويلة التي انطلقت من بيروت إلى مرسيليا على متن السفينة الفرنسية دجمنا ، ثم من مرسيليا إلى باريس

بالقطار السريع ، لم يتوقف خليل سركيس وأمين شكور وعبد الله صائغ عن الشكوى من نجيب سرسق . . كانوا يقولون ويكررون ويعيدون القول إنهم أعطوه تفويضاً مطلقاً باستئجار السفينة التي ستنقل المرمح من جونية إلى أميركا ، وتركا له حرية اختيارها من دون أي تبعة قانونية شخصية في حال فشل الاتفاق مع ربَّانها ، ومع ذلك لم يتوقف عن الانتقاد والتشكيك بقدرة سركيس على النهوض بأعباء الشركة .

وفي لحظة من لحظات احتدام النقاش وهم على ظهر السفينة «باريس» المتجهة إلى نيويورك ، قال سركيس لراجي بصوت مرتفع لفت أنظار الجالسين في المقهى :

– أنتم ثلاثة في لجنة إدارة الشركة ، والموازنة ثلاثة ، مع أنكم لا تشكلون ربع المساهمين في رأس المال ، كيف تريدون أن أتخلى عن رئاسة الشركة لنجيب سرسق ؛ والناس دفعت أموالها لأنني أنا ، خليل سركيس ، رئيس هذه الشركة؟

وأردف أمين شكور ساخراً :

– ما شاء الله عليكم أنتم حيتان الاقتصاد السوري ، منكم أغنى عشرة رجال في عموم سورية ، لماذا لم تساهموا أكثر في الشركة وتأخذوها وتريحوننا من هذا الهم!

لم يفهم راجي سبب هذه العصبية ، فقال بغضب :

– أنا لم أدع نجيب سرسق ولا نخلة بسترس ، وعلاقتي مع نجيب ، خصوصاً ، ليست على ما يرام ، ومنذ أيام الدراسة ، فمن

الإجحاف أن تضعوني معه في كفة واحدة . . أنا لا يعنيني إن كان أرثوذكسياً ، أو كاثوليكاً ، أو حتى درزياً ، هذا عمل وشركة ومال ، والمال لا طائفة له .

لم تقنع كلماته رفاق الرحلة الذين افترَّت شفاههم عن ابتسامات ساخرة ، فابتعد عنهم قليلاً ، ولم يعد يبحث معهم أي شأن من شؤون المرمح . . كانت الضغائن قد استحكمت في النفوس ، وتلبست ذلك اللبوس المقيت الذي وضعه في مكان لا يريده ، ولا يعني له شيئاً ، ولا ينتمي إليه .

قال في نفسه وهو يحتسي البيرة وحيداً على شرفة المقهى العلوي المطل على مياه المحيط : ما كان ينبغي أن أشرك أحداً معي في أمر المرمح .

أعاد له التأمل الطويل في زرقة المياه العميقة وجه صديقه القديم عباس أفندي البهائي ، حين التقاه للمرة الأولى بعد عودته من بيروت ضائعاً مشتتاً لا يعرف أي طريق يسلك ، فبعد ذلك اللقاء الغريب تغيرت نظرته إلى الدين ، أعجبته فكرة أن الإله واحد ، وأنه مصدر الخلق كله ، وأن الدين واحد وإن اختلفت الشرائع ، وأن البشر متساوون يشبهون الأوراق والثمار المتوضعة على غصن واحد .

لم يعتنق البهائية ولم يقتنع بتقشفهم وتعاليمهم الصارمة التي تحرِّم الإقبال على متع الحياة ، وتستعيض عنها بمتعة التأمل . . جرب التأمل مع الجماعة البهائية ، ولكنه لم يجد فيه بديلاً عن

متعة احتساء كأس واحد من النبيذ الفرنسي الفاخر .

في العام الماضي ؛ حين زار صديقه عبد البهاء ليعزيه بوفاة والده بهاء الله ، عانقه بحرارة ، ونظر إلى عينيه ملياً ، ثم قال له وهو يأخذه من يده إلى الحديقة الشاسعة المزدانة بصفوف متوازية من الزهور مختلفة الألوان :

- راجي! أخي الحبيب ، انظر إليَّ اتبعني كن مثلي .

يومها تأمل راجي وجه صديقه القديم فألفاه قد اكتسب ملامح جديدة ، فقد استطالت لحيته وأصبحت رمادية أقرب إلى البياض ، وغدت نظرته غريبة كأنها تنتمي إلى عالم آخر لا نراه .

قال راجي وقد اعترته قشعريرة :

- ليتني أستطيع يا صديقي ليتني أستطيع .

فقال عبد البهاء وهو يمعن النظر في عينيه :

- حيثما كنتَ تذكرني ، وسوف تجدني قربك!

أنهى راجي كأس البيرة الثالث ، فشعر بدوار خفيف . . استعاد وجه صديقه القديم ونظرته التي كانت تلتمع ببريق غريب ، فشعر بحنين جارف إليه ، وتمنى أن يكون معه في هذه اللحظة ، وحين هم بالانصراف لمح شيخاً بلحية بيضاء ورداء أبيض طويل يخرج من باب المقهى ، فأسرع إليه لكي يتحقق من ملامحه ، لكن الشيخ سبقه إلى الممر الطويل الذي يشرف على المحيط ، أسرع في السير لكن الشيخ كان يبتعد بسرعة أكبر ، ولكنه سمع من بعيد صوتاً يقول له :

- انظر إليّ ، اتبعني ، كن مثلي .

صاح راجي وهو يغذ في السير :

- ها أنا ذا قادم إليك انتظرني ، انتظرني أنا قادم .

لكن الشيخ انعطف بسرعة خاطفة نحو اليسار ، إلى فسحة السفينة الأمامية ، وكان الصوت يتردد ، ولكن منغماً هذه المرة بحيث بدا وكأنه غناء جماعي قادم من أعماق معبد قديم :

- انظر إليّ ، اتبعني ، كن مثلي .

وصل راجي إلى الفسحة ، فلم يجد فيها أحداً ، ذرعها ببصره وصاح بأعلى صوته :

- انتظرني انتظرني أنا قادم .

جبل طارق

سيطر على حسن الرماح طوال الرحلة هاجس مشي الخيول ، كان يطلب من أنطون وردة في كل يوم أن يسمح له باصطحاب الدبران ونجمة في جولة مشي قصيرة على ظهر السفينة ، متعهداً أن يتم الأمر والناس نيام ، وألاَّ يزعج أحداً ، وكان وردة يرفض بحزم ويقول له :

- ممنوع!

حين ظهرت صخرة جبل طارق من خلف الأفق ، قال أنطون وردة لحسن وهو يشير نحوها :

- سنرتاح يومين هناك ، وتستطيع أن تمشِّي خيولك كما تشاء .

أبهج هذا الخبر حسن ، فعدا باسماً بين جموع المسافرين المتجمعين في ممشى السفينة يرقبون الجبل ، وهبط الدرج المعدني درجتين درجتين نحو الحظيرة ليعانق جواده وفرسه ، ويخبرهما أن الفرج أقبل بعد تسعة أيام من الوقوف . لم يعبأ بتعليقات المسافرين المدهوشين من فرحته ، ولا بتعليقاتهم الضاحكة ، وحين وصل إلى الحظيرة وجد الدبران هائجاً ونجمة مستلقية على الأرض وهي تحاول الوقوف ولا تستطيع .

منذ ثلاثة شهور لم تعاودها موجات الحرارة التي أعقبت ولادتها الأولى . . هرع إلى سريره وأحضر كيساً فيه بعض الأعشاب الجافة وسكر النبات ؛ وأخذ يطعمها وهو يهزج لها ، فما هي إلاَّ دقائق حتى استقامت على قدميها وهي تنفض جسدها كأن رعشة حياة جديدة دبت فيه .

صرف ركاب سينثيانا اليومين السادس والسابع من نيسان في نزل المدينة ، في النهار كانوا ينتشرون زرافات ووحداناً في الشوارع والمتنزهات ، وفي الليل يجتمعون في حلقات صغيرة للدبكة والغناء .

في اليوم الثاني ، وبينما كان الفرسان يمرنون خيولهم ؛ اجتمع الناس بالمئات لكي يشاهدوا الفرسان العرب ، بعد أن انتشر خبرهم في المدينة ، فتحمس فريق الأمير حمزة حرفوش وبدأ مباراة عفوية في رمي الجريد ، وسط التصفيق والحماس ، وسرعان ما وصل الخبر إلى بلدية المدينة ، التي حضر رجالها وطلبوا إيقاف اللعب فوراً .

طلب أنطون وردة من الفرسان التوقف والخروج من المتنزه ، فلم يستجب له أحد . . شكاهم إلى بشارة زلزل ، فاندلع شجار بين الأمير علي ومن معه ، وأنطون وردة ومن اصطف إلى جانبه ، انتهى بتدخل سمعان صيقلي وفرسان الناصرة الذين وقفوا حاجزاً بين المتخاصمين ودعوهم إلى حفلة صلح في المساء .

وفي الحفلة التي أقيمت في مطعم النُّزُل دعت لجنة السفينة أربعين مدعواً على رأسهم القبطان ، وفريق الأمير حمزة حرفوش ،

وأنطون وردة ، وفرسان الناصرة الخمسة إلى ليلة طرب شرقي ، وأعدت وليمة عامرة دارت فيها الكأس على المدعوِّين ، فغنت فرقة المرمح أغان جبلية أثارت حماس القوم ، فقام البعض ودبكوا ، وتعانق المتخاصمون ، ورفعوا أنخاب القبطان سميث ، والدكتور زلزل ، وجميع رؤساء المرمح الغائبين ، ولكن الضغائن بقيت أشبه بجذوة متقدة تحت الرماد!

مخرت السفينة سطح البحر الرائق نحو الأطلسي ، في صباح الثامن من نيسان ، وحين غادرت المضيق شقت عباب بحر الظلمات ، فكبر البحر عليها وأصبح لونه أشد زرقة وأمواجه أكثر ارتفاعاً .

وزع سمعان صيقلي على المسافرين نسخ العدد الأول والأخير من جريدة «المرمح الحميدي» التي انشغل بها طوال الأيام السابقة ، وأمضى يومي جبل طارق في تحريرها واستنساخها ، وكان يأمل في أن تصدر مرة واحدة على رأس كل شهر .

كانت أخبار الجريدة خليطاً من الجد والهزل ، نقلت بلغة قريبة من الركاكة ما كان يجري على السفينة ، من قبيل :

* إن الخواجات إبراهيم خوري وسمعان صيقلي ويوسف نجار ورئيف شدودي وجبران سابا لم يوجد لهم محل للمنامة فاستؤجر لهم أوضتان بأجور ١٤ ليرة إنكليزية دفعت في ٢ نيسان .
* إن الفرسان قد تشكوا في هذا النهار من الغداء عند الظهيرة ، فكان اللحم قليلاً مع البرغل ، ولا تظهر للسمن رائحة في الطعام .

* قد تشاجر مقبل وحسين العلي على محل المنامة ، لأن الأول غير محله بوضع أشيائه في مكان الآخر .
* إن حنا السائس أهمل واجباته في وقتها عن سياسة خيله فيجب إنذاره .
* إن مريم لا تزال في حالة من العي من شدة الدوار ؛ مع أن البحر هادئ ساكن .
* إن جرجي تسلق سلم السفينة كنوتي ؛ فعرض نفسه للخطر ، فننذر ألا يكون مثالاً يقود سواه إلى خطر ما هو ليس بمألوف لدى القوم .
* أما القبطان فيتشكى من طول سهر الركاب وشدة الضوضاء فيجب أن تؤخذ سائر الاحتياطات لحفظ ناموسنا الشرقي تجاه الغربيين .
* إن الخيل بتمام الصحة هذا النهار ، وأما الجمال فقد أعياها الدوار ولا يقدر أحدها أن يقف على أقدامه في السفينة أو يجلس كعادته ، فإن اهتزاز السفينة يقلب بعضها على بعض . أما الأتن فكأنها على معلفها .
* إنه نظراً لانحراف صحة بعض الركاب في العنبر استؤجرت لهم أوضة مخصوصة بأجور ثمانية ليرات إنكليزية جعلت كمستشفى يشرف عليها حضرة المحترم الدكتور بشارة زلزل ، أحد عمدة الشركة الحميدية .
* غداً في الصباح سينحر فضول شاتين معاً وأربع دجاجات ،

والأمل ألا يسمع لدى الطعام خصام كالعادة .

* اضطرب البحر في الليل الفائت قليلاً ، فأظهر حسن الرماح مروءة في صيانة ما يحقق الرجاء به ويوجب الثناء .

* الصحة العمومية في السفينة جيدة .

* الطقس جيد إلاَّ أن البحر قد مد فوق العادة فأثر في الركاب قليلاً .

* قد ظهرت اليوم شطوط بلاد المغرب في إفريقيا ، أرض أجدادنا الفينيقيين ، وموطن هملقار وهانيبال قاهر الروم . الأرض التي افتتحها أبو زيد ودياب من قبائل زناتة .

* قد ظهرت شطوط إسبانيا أرض الأندلس التي اشتهرت تاريخياً في حروبها مع الروم ، والتي قطع بأبطالها هانيبال جبال الألب ، والتي غزتها قبائل الفاندلوس ، والتي افتتحها العرب ، وأسس فيها أجدادنا أهل الشام دولة سموها أندلساً ، والتي كانت سبباً من أسباب تهذيب الغرب ، والتي وقف فيها كولومبس تجاه إيزابيلا وذهب منها إلى أميركا فاكتشفها ، فهي التي بسببها وجدت أميركا ثم عظمت وأقامت الآن معرضها العظيم الذي اشتركت به أم العالم ، ولأجله أسست الشركة الحميدية وأرسلت هذه السفينة التي نحن مسافرون بها ، ما أجمل هذه الأرض .

* اليوم ظهرت تجاهنا صخور جبل طارق الذي كان الرومان يدعونها أعمدة هرقل ، والتي قطعها الفينيقيون في طريقهم إلى

جزائر القصدير (بريطانيا) ، والتي تملك عليها الإنكليز بسبب حروب نابليون بونابرت الشهيرة وجعلت قوتهم البحرية لا تقاوم ، وجعلتهم بالأولى حوت البحار ، وتدعى جبل طارق المعقل الفرد وتسمى أيضاً مدينة القصوف .

* قد تم القبض على حسن الرماح وهو يبتسم للمرة الأولى خارج الإسطبل منذ مخرت السفينة عباب البحر .

بداية متعثرة

وقعت صور بوفالو بل العملاقة المعلقة على جدران ملعب «بيسبول غراوند» على راجي صيقلي وقوع الصاعقة ، سأل جيمس شومان عن تفسير ذلك؟ فتذرع بأن الأمر يتعلق بخطط شركات الإعلان ، وأنه لا يد لإدارة الملعب بالموضوع!

لم يقتنع بهذا التبرير ، فمهما يكن ، من غير المنطقي أن يوضع إعلان لشركة منافسة على ملعب لشركة تمارس النشاط نفسه .

زادته الابتسامة الواثقة لأسطورة الكاوبوي ، وهو يركب جواده ، كآبة فوق الكآبة التي تلبسته فور نزوله من السفينة في ميناء نيويورك ، حين رأى الفوضى قد استشرت في فريق المرمح ، وكيف أن بشارة زلزل تعامل باستخفاف مع الفرسان والمستخدمين ، ولم يأبه لأي شيء يخصهم .

أخبره شقيقه سمعان كيف احتجزوا ليومين كاملين في مكان وقوف السفينة على أحد أرصفة بروكلين ، تحت الحراسة المشددة ، لأن الدكتور زلزل لم يتأكد من أوراقه حين أقلعوا من ميناء جونية ، ولولا تدخل سفارة الدولة العلية ، لظلوا معتقلين مع الخيول في أماكنهم أياماً أخرى!

حين وصل راجي وباقي أعضاء اللجنة ، كانت الخيول محتجزة في حانوت الميناء ، بانتظار دفع الضريبة المقررة عليها ، أما الفرسان ، والممثلون ، والممثلات ، والمستخدمون ، فكانوا ينتشرون في شوارع بروكلين بألبستهم الزاهية ، ومظهرهم الغريب ، مشردين بلا مأكل أو مأوى ، يصيح بعضهم في الشوارع من شدة الجوع ووطأة البرد .

نجح راجي بالضغط على اللجنة لاستئجار نزل يتسع للجميع ، ريثما تحل مشكلة الخيول ، وتحسم القضية العويصة الناشبة بين نجيب سرسق وبشارة زلزل حول القطار الذي سينقل المرمح إلى «أرض البيسبول» ، فترك القوم في جدلهم العقيم ، وأتى إلى شيكاغو ليعاين مكان المرمح عن كثب .

طاف به شومان على الإصطبل المقسَّم بين الخيول والجمال والأتن ، والمهجع المخصص لمنامة الفريق ، والقسم المخصص للنساء . . كانت الأرض رطبة كأنها قائمة على مستنقع من المياه الباردة .

قال بيأس :

– ما الذي دعاكم لاختيار هذا المكان سيد شومان؟

رد شومان من فوره ، كأنه كان ينتظر السؤال :

– في هذا الملعب يجتمع لمشاهدة مباراة البيسبول الواحدة عشرة آلاف مشاهد .

فبادره راجي :

- وهل تظن ، سيد شومان ، أن هذا المكان ، بوضعه الراهن ، يصلح للسكن الآدمي؟

- هنالك خيارات أخرى .

- ماذا تقصد؟

- لكل شيء حل ، أنتم قرروا وأنا جاهز!

حاول راجي خلال الأيام التي سبقت وصول قطار المرمح أن يؤهل مكان منامة الفريق بقدر المستطاع ، لكنه لم ينجح ، فكلما وضعوا رملاً على الأرضية ، عادت المياه للاستنقاع على السطح من جديد ، وبعد بحث متأنٍّ اختار مكاناً آخر أقل رطوبة ، وطلب من البنَّائين نقل المهجع والإسطبل من مكانهما ، وكان ذلك يتطلب دفع مبالغ إضافية وثقها شومان في ذمة الشركة .

وصل القطار بعد يومين من انطلاقه ، واحتاج نقل الجياد والهجن والحمير ومعدات المرمح إلى الملعب أربعين عربة خيل كبيرة . وفور وصول أعضاء اللجنة إلى «أرض البيسبول» صاروا ينظرون إلى بعضهم ، متسائلين عن الخمسة آلاف دولار التي دفعها نجيب سرسق على هذا البناء الخشبي البائس الرطب ، والبعيد عن أرض المعرض ، بحثوا عن يوسف قنواتي ، معتمدهم الذي أشرف على العملية برمتها ، فلم يجدوه . . قيل لهم إنه في نيويورك وسيحضر خلال أيام!

أُدخلت الخيول إلى الإسطبل ، واتخذ بعض الفرسان أماكنهم في المهجع الكبير ، في حين رفض الأمير حمزة وفريقه ، وكذلك

فرسان الناصرة ونابلس المكوث في هذا المكان الحقير ، كما وصفوه ، فهددهم أنطون وردة بالطرد من العمل إن لم يستلموا أسرَّتهم ويلتزموا بالمنامة مع الآخرين .

وما لبث الخلاف أن تطور إلى ملاسنة ، تبعها شجار أُشهرت فيه الأسلحة من جديد ، فهاجم رجال الأمير حمزة مجموعة من الفرسان الذين أحاطوا بأنطون وردة لحمايته ، ونجحوا في اقتحام الطوق ، وطرحوا «رئيس الفرسان» أرضاً ، ثم كبلوه وربطوه بأحد أعمدة المهجع ، وخرج الأمير حمزة وفريقه يتبعهم فرسان الناصرة ونابلس ، معلنين أنهم قرروا ترك العمل ، وتوجهوا إلى قلب المدينة للبحث عن نزل لائق بهم .

في اليوم التالي قال الأمير حمزة لراجي صيقلي وهو يحاول إقناعه بالعدول عن قراره :

– اسمع يا راجي أفندي ؛ أنت وباقي أعضاء اللجنة تعرفون من نكون ، وكلمة واحدة أقولها : إما نحن وإما أنطون وردة ، ولن ننام في ذلك الإسطبل .

حين عاد راجي إلى اللجنة ليبلغهم بشروط الأمير حمزة ، قال الدكتور زلزل محتداً :

– سيعودون رغماً عنهم وبقوة القانون ، وإذا لم يمتثلوا سنسوقهم إلى السجن .

تجاهل راجي كلام زلزل ، وقال مخاطباً خليل سركيس :

– لا حل أمامنا سوى الاستجابة لمطالب الأمير وجماعته ،

فهؤلاء لم يكلفونا شيئاً ، ألبستهم لهم ، وأسلحتهم لهم ، وإلا ستكون العواقب وخيمة على المرمح .

امتقع وجه زلزل وهو يتابع كلمات راجي التقريرية التي بدت له كأنها أوامر لا مناص من تنفيذها ، فقال محاولاً التظاهر بالهدوء :

- راجي أفندي أظن أن لوائح الشركة تتحدث عن أن القرارات تتخذ بشكل جماعي ، أم غاب عن بالك هذا الأمر؟

حدق راجي بعيني زلزل وهو يقول :

- امتناع الفرسان عن العمل ، يعني دمار المرمح ، وإذا لم يعملوا وهم مرتاحو الضمير ، فلن تجبرهم قوة في هذا العالم على تقديم ما عندهم من فنون . . نحن نتعامل مع رواية أدبية أبطالها هم هؤلاء الفرسان ، فإذا كانت معنوياتهم مرتفعة ، وضميرهم مرتاح ، قدموا أفضل ما عندهم ، وهذا يعني إقبالاً من الجمهور وأرباحاً للشركاء . . دكتور زلزل لا تمثيل بالإكراه ، ولا بالزجر ، وإذا كنت لا تدرك هذه الأمور ، عليك أن تسأل العارفين بأمور التمثيل والروايات .

نظر الشركاء إلى وجوه بعضهم بذهول ، وكأنهم تنبهوا إلى أمر كان غائباً عنهم ، فوافقوا على عزل أنطون وردة ، وتعيين سليم جاويش بدلاً عنه ، واحتساب تكاليف إقامة ومأكل الفرسان جزءاً من أجورهم .

ولكن وردة الذي امتثل ظاهرياً للقرار ، وقال إن كرامته لم تعد

تسمح له بالاستمرار في العمل بعد الإهانة التي تعرض لها ، توجه سراً إلى المحكمة لرفع شكوى ضد إدارة المرمح بسبب فصله من عمله تعسفاً!

ضغائن شيكاغو

كانت استعدادات افتتاح «القرية التركية» على قدم وساق حين وصل قطار المرمح الحميدي إلى شيكاغو . . أربك حفل افتتاح الجناح المصري الذي أبهر الأميركيين بكرنفال «المولد» ، خطط روبرت ليفي وجعله حائراً في أمره ، يبحث عن طريقة تجعل حفل افتتاح «القرية التركية» حديث الصحف الأميركية .

أراد ليفي أن يلفت الأنظار إلى «القرية التركية» بشيء خارج المتوقع ، فاتفق مع أخوية «الشراينرز» الماسونية المسماة «الفرقة العربية القديمة لنبلاء المعبد» على المشاركة بموكب كبير ، ووعد رئيسها بحفل غداء وهدايا من الشرق ، ولكنه ؛ حين رأى راجي صيقلي في مكتب سليمان البستاني ، عادت له فكرة الكرنفال الكبير الذي سينسي الأميركيين الكرنفال المصري ، فعانقه بحرارة ، وطلب منه النجدة في الاحتفال الذي سيُظهر مكانة السلطنة بين الأمم!

لم يخيِّب راجي أمله ، فدعا الممثلين والممثلات بأزيائهم المزركشة والملونة ، لاستقبال الضيوف خلال حفل افتتاح المبنى العثماني الرسمي في حديقة «جاكسون بارك» ، فكتبت الصحافة

مثنية على أناقتهم ولباقتهم . وفي صباح اليوم التالي استدعى فرسان بعلبك والناصرة ونابلس مع خيولهم ، وعدداً آخر من الهجانة مع جِمالهم لتمثيل محمل الحج الشريف .

وما إن خرج المحمل من القرية التركية ، حتى سار خلفه المئات من البدو والسودانيين والنوبيين والمصريين والجزائريين وهم يهللون ويكبِّرون ، وكان قد وصل للتو نحو ألفين من أعضاء فرقة «الشراينرز» وهم يعتمرون الطرابيش الحمراء ، المزينة بالهلال والنجمة ، فالتحقوا بالموكب وطافوا مع الجموع في شارع «ميدواي بليزانس» ، حيث تجمع آلاف الأميركيين على جانبي الطريق وعلى وجوههم علامات الذهول من هذا المنظر الغريب الذي عجزوا عن فهمه!

في ختام الحفل ألقى روبرت ليفي خطاباً بالإنكليزية شكر فيه أخوية «الشراينرز» لتشريفه بحضورهم ، وقدم لرئيسهم سيفاً دمشقياً مرصعاً بالجواهر داخل صندوق طويل من خشب القيقب الملمع ، يزينه العلم التركي ، وأعلن في موجة من الحماس انتسابه للأخوية ، فارتفع التصفيق والصفير وإلقاء الطرابيش إلى الأعلى!

ولكن هذا الاحتفال لم يمض على خير ، إذ تكتل أعضاء اللجنة ضد راجي في الاجتماع الذي عقدوه ، في مكتب سليمان البستاني ، ولاموه أشد اللوم على اتخاذ قرار المشاركة من دون الرجوع إليهم ، خصوصاً أن تكاليف نقل الخيول ، والجمال ، والمحمل ، قيدت ديناً على الشركة ، في وقت كان حَرياً به أن

يشترط على ليفي تمويل النقل . . وسرعان ما تطور اللوم والتبكيت إلى خلاف شديد حول مكان المرمح .

قال خليل سركيس :

– كيف وثقت بآلان رامزي ، وسلمته هذا الموضوع من دون أن تتحقق من صلاحية المكان؟

وأردف بشارة زلزل بغضب :

– هذا الملعب سيكسر ظهر المرمح ، وأرى المصيبة قادمة إلينا كما أراك الآن أمام عيني .

رد راجي بحدة :

– المكان ملعب بيسبول يستقطب الآلاف ، ولكم أن تذهبوا في وقت إحدى المباريات لتروا ذلك بأعينكم ، ولكن قولوا لي كيف وثقتم برسائل يوسف قنواتي؟

تلفت خليل سركيس على أعضاء اللجنة وهو يقول :

– من يكون يوسف قنواتي أنا لا أعرفه ، سمعت باسمه منكم .

عندها سحب راجي من جيبه ورقة وقرأ منها :

– «إن كل شيء قد أعد على أحسن ما يكون ، فالإسطبلات معمورة ، ومهجع المستخدمين منصوب ، والموائد قائمة بالانتظار ، حتى في ملاعقها وسكاكينها وشوكاتها ، والأسرَّة منشورة بفرشها ولحفها تحت السرادق الجميلة ، وأرض الملعب تتأهل في حوافر جياد خيولنا ، والمقاعد تعبئ الآلاف المتزاحمة ، والأبواب

ستستنزف جيوب أهل هذه الديار» .

ثم رفع رأسه نحو سركيس وقال :

– ألم نقرأ هذه الرسالة معاً؟ لماذا لم تسأل نجيب أفندي عنه حينها .

امتقع نجيب سرسق وقال بغضب :

– أنتم رشحتم يوسف قنواتي وأنا مجرد بنكي ، تقولون ادفع فأدفع .

تنحنح الدكتور بشارة زلزل وقال بارتباك :

– في الحقيقة أنا الذي رشحت يوسف قنواتي لهذه المهمة ، بعد أن كلفني الرئيس سركيس بذلك ، واعتمدت على أشخاص معروفين من قبل خليل أفندي وموضع ثقة منه ، وهم الذين أكدوا لي أن الخواجا قنواتي خير من يقوم بهذه المهمة .

ولم تكن القضية الثانية التي ناقشها الاجتماع ، والمتعلقة بشروط العقد مع صاحب الملعب أقل خلافاً ، فارتفعت الأصوات ، وكثرت الاتهامات ، فما كان من راجي إلاّ الانسحاب ، تلاه نجيب سرسق ونخله بسترس ، عندها نظر خليل سركيس إلى باقي أعضاء اللجنة وقال :

– لقد حذرتكم من «الصخرة الأرثوذكسية» ، ولم تصدقوني!

انفض الاجتماع بعد قليل من خروج الثلاثة على خلاف كبير ، وكان الرأي الذي استقر عليه خليل سركيس أن ملعب «أرض البيسبول» لا يصلح ، ولابد من البحث عن مكان آخر ،

فكتب بشارة زلزل وأمين شكور وعبد الله صائغ تفويضاً يخول «الرئيس» اتخاذ القرارات من دون الرجوع إلى أحد ، وكان هذا التفويض امتثالاً لنصيحة سليمان البستاني الذي قال إن مشكلة الشركة تكمن في تعدد الرؤوس ، ولابد من أن يكون القرار بيد شخص مسؤول مفوض .

أصدقيان

بعد انسحابه من الاجتماع ، إثر تعقُّد الخلاف حول ملعب «أرض البيسبول» ، اعتكف راجي أياماً عدة في النُّزُل أمضاها بالتفكر ومراجعة الذات ، لم يكن سهلاً عليه أن يرى مشروعه الذي تخيله في أبهى الصور ، وتكبد في سبيله المشاق ، ينهار هكذا أمام عينيه .

أشد ما آلمه تعامل شركائه مع المرمح كأنه فرصة لن تتكرر لاقتناص الثروة في فترة قصيرة ، أما صور النبالة والفروسية والشجاعة التي كانت تشغل باله ، منذ أن ولدت الفكرة في رأسه أول مرة ، فلم تكن تعني لهم شيئاً ، بل كانت موضع سخرية البعض منهم وهم على ظهر السفينة التي مخرت بهم المحيط .

كانوا يظنون أن وصول الخيول والجمال سالمة إلى الولايات المتحدة يعني أن الخزينة الأميركية فتحت أبوابها لهم ، وما عليهم سوى أن يبدأوا بالغَرف منها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . . لم يكن يعنيهم ، لا من قريب ولا من بعيد ، وضع الخيول إن كانت نشيطة معافاة قادرة على اللعب والطراد أم مريضة ، ولم يكن يهمهم الفرسان وأوضاعهم المعنوية ، أو المستخدمين إن جاعوا أو

شبعوا أو ناموا على مستنقع بارد . . إن أصابتهم ذات الرئة ، أو الحمى التيفية . . لم يكن يعنيهم شيء من كل هذا .

في اليوم الثالث من عزلته ؛ زاره شقيقه سمعان في غرفته ، وقبل أن يجلس قال :

– زلزل وشكور وصائغ فوضوا سركيس باتخاذ ما يراه مناسباً من قرارات ، وأول قرار اتخذه نقل المرمح إلى مكان آخر .

قال راجي بيأس :

– بدأت أعتقد بقوة بأن هذا الرجل هو مصيبة المرمح التي تورطنا بها ، وأن نجيب سرسق كان على حق في كل كلمة قالها عنه .

ردَّ سمعان ساخراً :

– احذر أن يسمعك أحد من أعضاء اللجنة ، سيقولون إنك تصطف إلى جانب ابن طائفتك .

ردَّ راجي بتأثُّر :

– وهل تظن أنهم لم يقولوها ، لقد واجهني بها سركيس أفندي ونحن على ظهر السفينة ، لم أشأ أن أخبره بأنني أقاطع نجيب سرسق منذ أيام المدرسة ، وأن ما حصل بيننا قبل عشرين عاماً لا يصلحه الدهر!

– ألهذه الدرجة؟

– نعم وأكثر ، فقد وشى بي وتسبب بخراب أول علاقة حب ربطتني بابنة عمه ، وبعد هذا يأتي سركيس ويتهمني بالاصطفاف مع نجيب في حلف واحد . .

ثم قال بغضب وهو ينهض إلى النافذة :

- مَن نجيب هذا حتى أصطف معه؟

حين همَّ سمعان بالانصراف تذكر أمراً ، فوقف عند الباب والتفت قائلاً :

- نسيت أن أخبرك بأن حسن الرماح سألني عنك قبل يومين ؛ وقال إنه يريدك لأمر عاجل .

نظر راجي إلى شقيقه معاتباً :

- أمر عاجل ، وقبل يومين! لماذا لم تخبرني يا سمعان؟ هذا الرجل يعني ما يقول .

ثم توجه مسرعاً إلى الحمام وهو يقول :

- انتظرني حتى آتي معك .

قال حسن الرماح لراجي ، وهما يتمشيان في ملعب البيسبول ، إن رجلاً تركياً غامضاً أتى أكثر من مرة بصحبة مترجم عربي ليسأل عن الجياد ، وأنه طلب لفائف الأنساب المصدقة من الوالي ، فأدرك راجي أن الأمر يتعلق بلجنة المعرض المعينة من الأستانة .

في ظهيرة اليوم ذاته أتى الرجل ليسأل عن الأوراق ، فعرفه راجي فور أن رآه ، كان اسمه المهندس آغوب أصدقيان ، المفوض الزراعي في اللجنة ، وهو من خريجي جامعة هارفارد ، وسبق أن عمل في نيويورك وكيلاً تجارياً فترة من الزمن ، قبل أن يعود إلى الأستانة ويفتتح وكالة للمعدات الزراعية الحديثة ، وقد التقاه

راجي بشكل عرضي أكثر من مرة في المابين الهمايوني ، خلال الاستعدادات للمعرض .

كانت المهمة التي انتدبته إليها اللجنة السلطانية ، كما قال لراجي بالتركية :

- متابعة أمور العاملين ، والدفاع عنهم وعن حقوقهم ، والوقوف على تجاوزات لجنة الإدارة بحقهم .

وحين سأله راجي عن الأوراق التي طلبها من حسن الرماح قال :

- يتعلق الأمر باستعادة الضريبة ، لأن الخيول معفاة بموجب قانون ماكينلي ، كونها تنحدر من السلالات العربية الخمس المنصوص عليها بالقانون ، وقيمة الضريبة المستعادة هي ١٥٧٥ دولاراً أميركياً .

دهش راجي من وجود فقرة حول السلالات العربية الخمس في القانون الأميركي ، وأكثر ما أدهشه أن بشارة زلزل لم يبد أدنى اهتمام بالموضوع ، فطلب الأوراق من حسن الذي غاب قليلاً وعاد ليقول إنه لم يجدها ، مرجحاً بأن تكون ضمن الصناديق التي لاتزال محتجزة في الجمارك .

في الأيام التالية تشعبت الأحاديث بين الرجلين ، ووصلت إلى مرمح بوفالو بل ، إذ روى أصدقيان لراجي قصة هذا العقيد المغامر ، وكيف تحول إلى أحد رموز الولايات المتحدة ، تماماً مثل جورج واشنطن و«أونكل سام» .

خطرت لراجي ، بعد أحاديثه المطولة مع أصدقيان ، فكرة تعيينه مديراً تنفيذياً للمرمح الحميدي ، فمن شأن ذلك أن ينقذ المشروع ويعيد إليه الأمل ، إذ أن الرجل أميركي - عثماني ، ويعرف طرق ووسائل البلد .

لم يخبر أصدقيان بفكرته ، ولكنه مررها بشكل مبهم في أحد أحاديثه مع سليمان البستاني ، بحضور بعض أعضاء لجنة المرمح ، ولكنه لم يتوقع البتة أن يتلقف الفكرة أحدهم ويوصلها إلى خليل سركيس في اليوم نفسه ، وأن يسارع الأخير بها إلى مكتب المحامي جيمس شومان ، وأن يوقع العقد المجحف مع جورج أرندل في الجلسة ذاتها!

والأنكى من كل ذلك ، أن هذا العقد المجحف تم توقيعه بمباركة من آلان رامزي الذي حضر من الأستانة قبل أيام ، ولم يتصل إلاَّ بخليل سركيس من أعضاء لجنة الإدارة ، والأكثر إدهاشاً من كل ذلك إقبال سركيس عليه وعلى شومان دفعة واحدة! بعد أن كان دائم التبرم من الورطة التي وضعهم فيها!

قال راجي لشقيقه سمعان وهما يتمشيان في أرض المعرض :

- هذه العلاقة الوثيقة بين سركيس ورامزي ، لم أفهم حتى اللحظة كيف نشأت ومتى وكيف؟!

تبسم سمعان وقال ساخراً :

- أخشى أن تكون على علاقة بالكنيسة الإنجيلية أو بالمحفل الماسوني!

- معقول؟

- ولمَ لا؟!

بعد توقيع العقد مع أرندل بأيام قليلة انتقل المرمح إلى ملعب «غارفيلد بارك» ، فانتقلت زيارات الخواجا أصدقيان اليومية بصحبة مترجمه إلى هناك ، ولكن أحداً لم يكن يعلم بأن أصدقيان كان تحت أنظار أرندل في كل خطوة يخطوها ، بعد أن وصل إليه أن ثمة من يعمل على تعيينه مديراً للمرمح .

لفائف الأنساب

طلب أرندل من جميع الموظفين الأميركيين في المرمح ؛ متابعة المهندس أصدقيان في كل خطوة يخطوها ، وأن يكونوا حاضرين معه في أي مكان يقصده داخل الملعب ، وألا يغيب عن أبصارهم لحظة واحدة ، وأن يراقبوا الأشخاص الذين يتحدث معهم ، وأن يحاولوا أن يفهموا فحوى هذه الأحاديث .

قال له الموظف المكلف بمتابعة أحاديث أصدقيان بشيء من التبرم :

- نحن لا نفهم اللغة التي يتحدث بها أصدقيان مع الفرسان ، فما العمل؟

هز أرندل رأسه هزات خفيفة وهو يقول :

- لا تقلق سأجد حلاً .

كان أرندل يعول على مؤيديه داخل لجنة المرمح ، وخصوصاً ذلك الذي أسرَّ له بفكرة تعيين أصدقيان مديراً!

في أحد الأيام ، وبعد أن أُخرجت الصناديق المحتجزة في الجمارك ، حضر المهندس أصدقيان إلى الملعب ، وراجع مع حسن الرماح لفائف الأنساب ، وقارن كل ورقة بصاحبها أو صاحبتها من الجياد والأفراس ، وسجل التفاصيل في دفتر صغير .

كان أصدقيان يريد من حسن الأوراق كاملة ، لأن الذي عرضه يخص أربع عشرة منها فقط ، تخص الخيول التي أشرف هو على إحضارها ، فوعده خيراً وقال إنه سيجمعها كلها ويعطيها له في اليومين القادمين .

وفي اليوم نفسه طاف حسن على أصحاب الخيول ؛ وجمع منهم الأوراق التي كانوا يحتفظون بها . . بعضها أوراق ثمينة فيها مشجرات الأنساب ، والبعض الآخر مجرد حجج شرعية من الولاية تتعلق بالسماح للخيول بركوب السفينة .

أمضى حسن يومه وهو يرتب الأوراق ، ويفرز مشجرات الأنساب المصدقة عن الحجج الشرعية ، فكانت الحصيلة التي تجمعت بين يديه ثلاثين لفافة أنساب مصدقة وخمس عشرة حجة لا قيمة لها . . وضع الأوراق في الصندوق الخشبي الصغير الذي يحتفظ فيه بأشيائه الثمينة وأغلقة بقفل صغير ونام .

ولكن ؛ وفي الليلة ذاتها حضر رجلان إلى مكان نوم حسن ، وبدأ يعبثان بأغراضه ، وحين استيقظ على صوت الجلبة ، هدده أحد الرجلين بفوهة مسدس بين عينيه ، وضربه الآخر ضربة شديدة على مؤخرة رأسه أفقدته وعيه .

ومع شروق الشمس ، تنبه إلى الدماء المتجمدة على مخدته ، وبدأ يستجمع شتات ذاكرته لكي يفهم ما جرى . . وحين نظر إلى صندوقه الخشبي المخلوع ، أدرك ما حصل دفعة واحدة ، فقرر التزام الصمت حتى يأتي راجي .

حين حضر راجي وعلم بالقصة ، توجه من فوره إلى مكتب سليمان البستاني في القرية التركية ، وكان هناك بعض أعضاء لجنة المرمح ، فأخبرهم بما حصل لحسن الرماح .

التزم أعضاء اللجنة الصمت ، فقد بدا لهم الأمر غامضاً وغير مفهوم . . أفصح لهم عن شكوكه بأنطون وردة ، رئيس الفرسان المطرود ، فهو الوحيد الذي يمكن أن تهمه الأوراق إذ يمكن عن طريقها استعادة مئات الدولارات من مصلحة الضرائب . . ولكن إنكاره القاطع أمام سليمان البستاني حين استدعاه وهدده بالشرطة والقضاء ، وتصريحه بأنه باشر فعلاً في رفع دعوى على الشركة لتحصيل حقوقه ، جعلا الأنظار تتجه إلى احتمال آخر!

اتجهت شكوك أعضاء اللجنة نحو حسن الرماح ، لكن راجي دافع عنه بشراسة ، وقال إن من يتهم حسن بالسرقة ؛ يتهم راجي شخصياً .

قال نجيب سرسق ببرود :

– هذه الأوراق تفيدنا في حال أردنا استعادة الضريبة ، ومن سرقها لن يستفيد منها من دون وكالة رسمية من إدارة الشركة ، فما الداعي للقلق؟

قال خليل سركيس :

– لا بد أن نسأل محامينا .

في صبيحة اليوم التالي توجه أعضاء اللجنة إلى مكتب المحامي شومان وسألوه عن الأمر ، فاستشاط غضباً وقال :

– لماذا لم تبلغوا الشرطة بالحادث ، إن خيولكم ستفقد قيمتها من دون الأوراق .

نظر أعضاء اللجنة إلى وجوه بعضهم البعض مستغربين رد فعل شومان .

قال سركيس :

– وماذا يعني أن تفقد خيولنا قيمتها؟

قال شومان :

– هذا يعني أنه بدلاً من أن تبيعوا الرأس بخمسة آلاف دولار أو أكثر ، ستبيعونه بخمسمائة دولار فقط ، وربما أقل من ذلك .

قال راجي بغضب :

– ومن قال لك إننا سنبيعها؟

رد شومان ببرود :

– قد تضطرون لبيعها!

عاد راجي إلى حسن وحاول التحقق منه حول هوية الرجلين الذين ضرباه وسرقا الأوراق .

قال حسن :

– إنهما أجنبيان ، لقد نطقا أمامي بكلمات أجنبية لم أفهم منها شيئاً .

ازداد الأمر غموضاً ، وتعقد بشكل كبير ، فمن سرق الأوراق لم يكن قصده استعادة الضريبة ، لقد أراد شيئاً آخر استعصى على فهم راجي!

حرب الوردتين

لا أحد يعلم سر الصداقة التي تجمع مدير المرمح الجديد جورج أرندل بالمحامي شومان ، فالرجلان من طينتين مختلفتين ، ولا يبدو على أرندل أي مظهر من المظاهر التي تجذب محامياً محنَّكاً مثل شومان . . البعض يقول إن شومان يشفق عليه كونه يعرف أصله النبيل ، والبعض الآخر يعزو الأمر إلى ولع النساء بوسامة أرندل ، وأن شومان يناله شيء من هذه الصداقة! وثمة من يقول إن شومان اكتشف ، عن طريق علاقاته في دائرة مسح الأراضي ، وجود قطعة أرض كبيرة جداً في ولاية فيرجينيا تعود ملكيتها لعائلة أرندل ، لا يعلم أحد عنها شيئاً ، وإنه يسعى إلى نيل ثقة ووكالة «صديقه الحميم» قبل أن يعلم باقي الورثة بأمرها . . ويؤكد هؤلاء أن الحديث يدور عن آلاف الهكتارات التي تساوي مئات آلاف الدولارات .

كانت مسألة الأصل النبيل لأرندل موضع تشكيك الكثيرين وتندُّرهم ، خصوصاً أن تباهيه بجده الإيرل أرندل ، أحد أبطال «حرب الوردتين» ، كان قد تحول إلى لازمة مكرورة أثناء حالات سكره الشديد!

تسلم أرندل إدارة المرمح في وقت كانت الشركة تنقل العاملين وحيواناتهم ومعداتهم إلى ملعب «غارفيلد بارك» ، القريب من مركز المدينة ، وفور استقراره في مكتبه ؛ أخذ من صندوق الشركة نحو أربعة آلاف دولار ، صرف منها للجمارك نحو ألف وثلاثمائة ، وما بقي قيده في قائمته ثمن إعلانات ، وأجور باعة التذاكر ، وثمن طوابع ، وبريد ، وكتابة مشفرة (ستينوغرافي) .

لفتت مصاريف أرندل أنظار الشركاء ، رغم خلافاتهم العميقة ، فهي في جميع الحالات غير مفيدة أو ذات قيمة للشركة . . وحين راجعه البعض ؛ قلب لهم ظهر المجن وحذرهم من التدخل في عمله ، فطرح هؤلاء فكرة طرده ، ولكن العقد الذي وقعه مع خليل سركيس ، المفوض من ثلاثة أعضاء في لجنة الإدارة ، ربط الشركة به إلى آخر المعرض ، بحيث بات من المستحيل الفكاك منه من دون دفع كامل أجوره المنصوص عليها في العقد ، وهي مائتي دولار في الأسبوع الواحد ، طيلة ستة شهور!

شيئاً فشيئاً بدأت تظهر للشركاء ملامح شخصية أرندل ، وسرعان ما اكتشفوا المصيبة التي وقعوا فيها ، فهو سكير ، كسول ، لا يعول عليه في أي موعد . . كما حضرت إلى مقر الشركة في «غارفيلد بارك» الضابطة العدلية ، لتبليغة بدعوى أقامها عليه خياط بسبب عدم دفعه ثمن البزّات التي كان يخيطها له ، ثم حضر تبليغ آخر بشأن دين لشريكه السابق في محل المشروبات

الكحولية ، فتبليغ ثالث من سيدة تدعي أنها حملت منه ، وتريد تثبيت نسب ابنها .

كانت طبيعة أرندل مجبولة على الإسراف والإقبال على متع الدنيا ، فقد عاش سنوات شبابه كإبن لأحد أثرياء فيرجينيا المنحدرين من سلالة المؤسسين الأوائل ، غير أنه سرعان ما أنفق ثروته في البورصة والمشاريع الخاسرة ، والبذخ ، فأعلن إفلاسه بعد تقاسم التركة بعامين ، وكان لوالده صديق قديم من كبار صناعيي الولاية ، أعطاه ، بعد أن علم بقصة إفلاسه ، وكالة لمنتجات شركته ؛ تشمل أكثر من ولاية ، ولكنه سرعان ما فشل في المهمة ، وكبَّد الشركة خسائر كبيرة ، اضطرت صاحب العمل إلى طرده .

وحين أسس متجراً لبيع الكحول في شيكاغو بالتشارك مع صديق آخر ، كان ينفق من رأسمال الشركة على ملذاته التي لا تنتهي ، ففشل المشروع وغرق في الديون ، وفي هذه المرحلة تعرف عليه شومان ، الذي وعده بأن يعيد النظر في موضوع التركة العائلية ، وأن يحصل له على مزيد من الأموال!

اتسعت شقة الخلاف بين الشركاء ، بسبب طريقة إدارة أرندل ، ولم يعد أحدٌ منهم يكلِّم الآخر ، فاستغل الظرف وأمعن في إسرافه ، وعيَّن مجموعة من الموظفين والموظفات الأميركيين برواتب كبيرة ، وطلب مبالغ إضافية لتأهيل ملعب «غارفيلد بارك» بمدرج مسقوف للجمهور .

في هذه الفترة كتبت صحيفة «شيكاغو ديلي كلوب» أن

أرندل تناول العشاء مع نيت سالزبوري مدير مرمح بوفالو بل ، وتبادلا الأنخاب في أحد مطاعم شيكاغو الفارهة ، وقد كثرت الشائعات والأقاويل حول من سعى للقاء الآخر؟ البعض قال إن أرندل هو الذي دعا سالزبوري طالباً مشورته ، والبعض الآخر قال إن سالزبوري هو الذي دعا أرندل لغاية في نفسه ، وهؤلاء يدللون على كلامهم بأن سالزبوري ، الرجل الشهير ، والذراع اليمنى للعقيد بوفالو بل ، ما كان ليضيِّع وقته مع شخص فاشل مثل أرندل لو لم يكن هو صاحب الدعوة ، ويريد شيئاً محدداً!

وما يدعم وجهة النظر الثانية أن العقيد بوفالو بل استقبله في منزله ، ودار بينهما حديث طويل عن المرمح الحميدي ، وسبل النهوض به ، بحسب ما قال أرندل لخليل سركيس في اجتماع جمعهما في مكتب سليمان البستاني ، وكانت وجهة نظر بوفالو بل ، كما نقلها أرندل ، أن الوسيلة الفضلى لإنقاذ المرمح من كبوته هي تخفيض سعر التذكرة إلى عشرة سنتات!

حين طرح سركيس الاقتراح على من تبقى من أعضاء لجنة الإدارة ، وقف من قال إن أرندل متواطئ مع بوفالو بل لإسقاط المرمح ، وهو ما اعترض عليه سركيس بشدة ، إذ قال بحزم :

- لا تنسوا أن الرجل لورد ومن طبقة النبلاء ، ولو كان متواطئاً ، لما تحدث عن القصة من أصلها ، وما كان ليذكر اسم بوفالو بل مطلقاً .

ضحك راجي وقال بسخرية :

– ألم تقرأ خبر «عشائه السري» مع نيت سالزبوري في الصحافة؟

تجاهل سركيس تعليق راجي ، وقال :

– لا أنكر أن الرجل مبذِّر ، وهذا ناتج عن نشأته في أسرة نبيلة ، ولكنه ، والحق يقال ، أنشأ مؤسسة متكاملة ، وسوف نرى النتائج قريباً عندما ينطلق البرنامج ، مع الإضافات التي قرر أن يضيفها بناء على نصيحة بوفالو بل .

انتفض راجي في مكانه حين سمع الجملة الأخيرة ، ونهض واقفاً وهو يوجه كلامه لسركيس :

– ماذا قلت؟ يريد أن يضيف فقرات للبرنامج؟

– نعم هو قال لي ذلك .

قال راجي بحدة :

– تعلمون جميعاً بأنني المشرف الوحيد على برنامج المرمح ، وفق البنود التي يشتمل عليها عقد تأسيس الشركة ، ولن أسمح لا لأرندل ولا لغيره بالعبث في البرنامج .

قال راجي كلمته الأخيرة وانسحب من الجلسة ، وتوجه من فوره إلى مكتب أرندل في «غارفيلد بارك» ، وطلب من السكرتيرة بصوت مرتفع أن تخبر مديرها بأن راجي صيقلي المشرف على برنامج المرمح يريد أن يقابله .

وما هي إلا لحظات حتى ظهر أرندل مبتسماً ، ودعاه للدخول بكل أدب .

قال راجي قبل أن يجلس :

– سيد أرندل بلغني أنك تريد أن تضيف بعض الفقرات إلى برنامج المرمح ، هل هذا صحيح؟

قال أرندل وهو يهم بالجلوس وراء مكتبه :

– نعم أفكر في ذلك ، فقد نصحني صديقي بوفالو بل بأن أضيف فقرة لاعبي قوة إلى البرنامج ، فهذا سوف يجتذب مزيداً من المشاهدين ، ويدعم صور الإعلانات .

قال راجي بعد أن استعاد هدوءه :

– سيد أرندل عروضنا فيها دراما وتمثيل ، وتجسيد لقيم النبالة والفروسية العربية ، ولا مكان للمصارعين أو لاعبي القوة في البرنامج .

بدا الاهتمام على وجه أرندل :

– فروسية ونبالة وتمثيل ، هذا خبر رائع ، لم يخبرني أحد عن ذلك ، قالوا لي إن ما سنقدمه هو شيء يشبه لعبة البولو عندنا .

قال راجي وقد علت وجهه ابتسامة ثقة :

– لا يا سيد أرندل ، عرضنا بطله جواد يدعى داحس ، وفرس تدعى الغبراء ، وكلاهما حصانان لا يشق لهما غبار ، وقد تراهن أحد نبلاء العرب مع نبيل آخر على مائة من الإبل لمن يسبق منهما ، وكانت مسافة الرهان كبيرة تستغرق أياماً عدة ، يقطع فيها الحصانان صحارى وغابات ، فأوعز صاحب الغبراء لحاشيته بأن يعترضوا داحس ويحاولوا إلهاءه في الطريق ، ففعلوا حتى تقدمت

الغبراء ، وحين علم صاحب الجواد بالأمر ، اشتعلت حرب بين قبيلتي عبس وذبيان دامت أربعة عقود ، وبرز فيها عنترة بن شداد العبسي ، فغدا أسطورة الفروسية عند العرب ، على مر الدهور .

قال أرندل :

– جميل جميل ، هي حرب تشبه «حرب الوردتين» إذن؟

ردَّ راجي وهو يعصر ذاكرته ، محاولاً تذكر شيء عن الاسم الذي سمعه للتو :

– ربما ؛ شيء من هذا القبيل!

عندها نهض أرندل جذلاً من وراء مكتبه ، وملأ كأسي كونياك قدم أحدهما لراجي ، وجلس على أريكة مقابله ، وأشعل غليونه ، وبدأ يروي له تفاصيل «حرب الوردتين» بين أسرة لانكاستر التي كان شعارها وردة حمراء ، وأسرة يورك التي كان شعارها وردة بيضاء ، وكيف ساهم جده اللورد أرندل ، بفضل خطة عسكرية محكمة ، تتجاوز خطة نابليون بمراحل ، في فوز هنري تيودور من أسرة لانكاستر ، على آخر خصومه من أسرة يورك ، وهو الملك ريتشارد الثالث ، وكيف كان لنصيحته بزواج هنري تيودور من الأميرة إليزابيث ابنة الملك إدوارد الرابع ، الدور الأبرز في وضع نهاية سعيدة لهذه الحرب التي تواصلت لثلاثة عقود متوالية!

حريق مدبَّر

بعد أن شاهد راجي مسرحية «عنترة بن شداد» في مسرح القرية التركية ، خطرت له أفكار كثيرة أراد أن يضيفها إلى عرض «داحس والغبراء» في ملعب «غارفيلد بارك» ، ولكنه قبل ذلك أراد أن يطرحها على مدير الممثلين في المسرح الشرقي الشيخ أبي خليل القباني .

لفت نظره تفاعل الجمهور مع عبلة وهي تضرب عمارة على صدره وتوقعه أرضاً ، إذ ضجت الصالة بالتصفيق والتصفير من فرط الحماس ، وحين اختتمت المسرحية بالرقص والدبكة ، كانت الصالة تشتعل حماساً .

في المقهى المجاور للمسرح ، سأل القباني وهما يحتسيان القهوة :

– ما الذي يرضي الجمهور؟

قال القباني وهو يبتسم من بساطة السؤال وصعوبته :

– صدقني لا أعرف ، كنت أظن أن الجمهور الأميركي لن يُقبل على الدراما القلمونية ، فأحبَّها أكثر من أي عمل آخر ، وكنا نظن أنه سيعجب بهارون الرشيد ، لكنه أعرض عنها .

- وعنترة؟

- عنترة فاقت كل توقعاتنا ، ربما بسبب الرقص ومشاهد المعارك والسيف والترس والساحرات ، ولكن ؛ وأرجو أن تصدق بأنني حتى هذه اللحظة ، لم أستطع أن أفهم ما الذي يريده هذا الجمهور؟!

في اليوم التالي حضر القباني بصحبة راجي إلى «غارفيلد بارك» لمشاهدة التدريبات النهائية ، وبعد أن عرضت أمامه بروفة كاملة ؛ اقترح تقسيم الفرسان إلى أربع مجموعات ، اثنتان ترتاحان واثنتان تمثلان ، وأن يفتتح العرض بمشهد السباق بين داحس والغبراء ، وأن يكون إلهاء داحس حقيقياً ومضحكاً ، وأن تفوز الغبراء حقاً ، وأن يختتم العرض باحتفال كبير يتضمن اللعب بالسيف والترس ، والطواف بالجمل الذي يحمل الأميرة بعد أن نجت من الخطف ، وصولاً إلى المصالحة النهائية وحلقة الدبكة التي تشمل رجال ونساء المرمح جميعاً .

عاد راجي إلى النُّزُل مرتاح البال بعد أن ودع القباني ، وأمضى ليلته وهو يرسم في مخيلته تفاصيل العرض ، من لحظة بداية السباق إلى نهاية الدبكة ، فنام سعيداً مرتاح البال للمرة الأولى منذ وطئت قدماه أرض أميركا!

في صبيحة اليوم التالي ، وبينما كان يحتسي القهوة ويقرأ الجرائد في مطعم النُّزُل ، لمح عبارة «الجياد العربية» ، وقبلها كلمة «احتراق» .

في البداية لم يستوعب الخبر تماماً ، شعر بأن الأرض مادت به ، ففرك عينيه وشرب جرعة كبيرة من القهوة وأعاد قراءة العنوان : «احتراق الجياد العربية في غارفيلد بارك» ، ألقى الجريدة وخرج مسرعاً يبحث عن عربة تقله ، وحين وصل إلى الملعب ، وجد أعضاء اللجنة الآخرين ، والمهندس أصدقيان ، وأرندل ، كلهم واقفين متباعدين ، يتأملون بصمت أطلال الخراب المحترق .

قال له حسن والدموع في عينيه :

– بعد منتصف الليل نهضنا مذعورين على صراخ النساء ، وحين بارحنا الخيام وجدنا النار قد اندلعت في الإسطبل من موضعين ، وإحدى النساء تصيح وهي تشير إلى شخصين كانا يقفزان إلى خارج الملعب . حاولنا إطفاءها بما توفر بين أيدينا من أوانٍ ملأناها بالماء ، لكن النار كانت تزداد استعاراً مع كل هبة ريح . كنت أول الداخلين إلى الإصطبل ، تبعني مقبل وحسين العلي وخالد العبدالله وباقي الفرسان البدو والنساء ، وخلصنا ما صادفناه في وجوهنا من الجياد ، ولكن النار كانت قد التهمت مجموعة من الخيول والجمال في زاوية الإسطبل الشمالية ، والتي تكومت فوق بعضها ، ولم نتبين عظام الجياد من الجمال المحترقة . . بحثت بين الخيول الناجية فوجدت نجمة ، ولم أجد الدبران ، فعدت إلى الإصطبل مجدداً ، غير أن الفرسان قبضوا علي ومنعوني من الدخول .

علم راجي ، في اجتماع اللجنة ، أن مضخات الإطفاء

أخمدت آخر جذوة مع بزوغ خيوط الفجر الأولى ، وأن النار وصلت إلى بعض الخيام وجزء من مستودع الألبسة ، والأشد إيلاماً من كل ذلك أن الجياد السبعة المحترقة كانت الأفضل والأثمن والأكثر أصالة ، ومع ذلك لم يلحظ أي تأثر على المجتمعين ، فالخيول في النهاية لأصحابها ، كما قال الدكتور زلزل!

انسحب راجي من الجلسة بعد هذه العبارة ، وترك القوم في جدلهم العقيم ، وضغائنهم الأبدية ، ومضى إلى غرفته في النُّزُل ، وفي صبيحة اليوم التالي قرأ في صحيفة «شيكاغو تريبيون» أن البدو في مضمار «غارفيلد بارك» ، قدموا عرضهم الافتتاحي أمام المدرج الذي امتلأ نصفه بالمتفرجين ، ولكن الحزن سيطر على المشهد!

وقرأ في صحيفة ثانية أن «الطبول أعلنت بعد الساعة الثالثة بداية العرض . فتمختر ثلاثون فارساً بألبستهم المزركشة والمذهبة والمطرزة ، وكل فارس كان يحمل رمحاً بطول عشرة أقدام تقريباً ، في حين كانت النساء العربيات يرددن الأهازيج الغريبة على وقع الموسيقى . إلى اليمين اتخذ بنو عبس موقعهم مقابل بني ذبيان . واصطف حملة الرماح من بني ذبيان في المقدمة مقابل بني عبس . لقد كان هؤلاء يؤدون عرضاً مسرحياً ، ولكن المشاهدين لم يكن لديهم فكرة عن ذلك في ظل الفوضى والضجيج . تم اختطاف سعدة ، الفتاة الجميلة من بني ذبيان ، وظهر فارس على حصانه ولوح برمحه نحو خيام بني عبس ، ولكن أصوات النساء

كانت تطلق صرخات الحرب ، وعلى الجانبين ارتفعت أصوات الموسيقى التي تدعو الفرسان لحمل السلاح . ضرب أحمد آغا مقبل على صدره برمحه المدبب ، واستدار المحاربون ، وتوقفت الموسيقى ليعلو صوت عويل النساء الذي كان يسمع من آخر الميدان . بعد ذلك خرج من كلا الجانبين كوكبة من الفرسان يتباهون بحللهم الملونة ، ويشهرون سيوفهم العربية . كانت الموقعة قصيرة وسريعة ، وعادوا لينطلقوا مرة أخرى ، إذ أن قبيلة عبس قد هزمت وأعيدت العروس سعدة إلى قبيلتها ليحل السلام بعد ذلك والاحتفالات ، وشكلت النسوة حلقات ليغنين الأهازيج ، وظهرت حواجبهن الرفيعة وأساورهن الفضية وهي تلمع» .

وقرأ في صحيفة ثالثة أن رجال الشرطة تدخلوا وأوقفوا العرض ، بعد أن سمعوا صراخ النساء وظنوا أن المعركة حقيقية ، وأن من سقط فيها مات حقاً!

حين انتهى من قراءة الصحف تنبه إلى أن المهندس آغوب أصدقيان يجلس أمامه على الطاولة ، يشرب فنجان قهوة ويدخن الغليون .

قال أصدقيان من دون مقدمات :

- لجنة المرمح أصيبت بالجنون ، البارحة أجبروا الفريق على تقديم عرض رغم كارثة الحريق ، ولم يسمحوا لي بالدخول إلا بعد أن دفعت ثمن تذكرة ، واليوم منذ الصباح يقوم بشارة زلزل وأمين شكور باستجواب العاملين عن الأشياء التي فقدت في الحريق ،

ويكيلون لهم الشتائم والاتهامات بسرقتها ، كأن هؤلاء المساكين ينقصهم زلزل وزبانيته ؛ بعد أن فقد بعضهم حصانه .

مسح راجي حبات العرق عن جبينه وهو يقول بحزن :

– ماذا سأقول لهم ، لقد وعدتهم بأن تكون الأمور على ما يرام ، ولذلك تحمسوا وأتوا . . هل يظن زلزل وشكور أن الناس عبيد عندهم . . بعض هؤلاء لديهم خدم في بيوتهم ، وما شاركوا معنا إلا ثقة بكلامي ووعودي . . قل لي ماذا أفعل؟

قال أصدقيان بحزم :

– لن نسمح لهم باضطهاد هؤلاء المساكين أكثر من ذلك ، إن كانوا رجالاً حقاً فليواجهوا أرندل وشومان ورامزي .

انتعاشة مؤقتة

أحيت عروض «غارفيلد بارك» الآمال بإنتشال الشركة من سقطتها ، فاستقدم أرندل المزيد من الموظفين والموظفات ، وتعاقد مع أشهر خطباء شيكاغو بأجور فاحشة .

كان الخطيب المسمى دكتور كروزبي ، ذو القبعة الطويلة ، وعصا البامبو معقوفة اليد ، واللحية المقوَّرة التي تشبه لحية الرئيس لينكولن ، يقول للناس المتحلقين حول المنصة التي يعتليها :

- «اسمعوا أيها القوم إن من ترونهم أمام أعينكم عرب بنو عرب ، بدو من الصحراء ، أبناء عمنا إسماعيل ، هؤلاء سلالة قوم وطئوا بحوافر جيادهم سائر الأرض المعمورة ، من نهر الهند شرقاً إلى بلاد الإسبان غرباً ، ومن أواسط إفريقيا إلى أسوار فيينا شمالاً .

اسمعوا اسمعوا . . هؤلاء قوم حافظوا على عاداتهم ومشاربهم طوال الأجيال ، فتغير العالم وهم كما هم منذ عهد أجدادهم الأوائل!

عندنا منهم ثلاث قبائل ترونهم داخل هذا الجدار المرسوم ، فتدرسون أخلاقهم وعاداتهم ، ومما تشاهدون في الداخل حرباً عواناً بين الفرسان ، وترون راكبي الجمال يأخذون الكرَّة من راكبي الخيل ،

فيداس راكبو الحمير تحت حوافر الخيل ، وتقلب أرجل الجمال والهجن الأتن براكبيها عند تلاحم الفريقين ، وتشاهدون البدوي على أقدامه الحافية يسابق البعير في الكرَّة ، والحصان في الفرَّة .

وفي ما سوى النزال ترون سباقاً غريباً بديعاً على ظهور جياد شهد لها التاريخ من عهد سام إلى يومنا هذا ، وسباقاً على هجن تسعى كقطاراتنا البخارية ، ثم تشاهدون سباقاً بين الخيل والهجن مما لم تسمع به آذاكم ولم تقرأوه في كتاب ، وتنظرون سباقاً يضحك ثكالاكم ، سباق مضحك هزلي بين الأتن والجمال .

وليحذر سيد من أخذ امرأته من هذه البقعة من دون أن يريها هذا المرمح ، لأنه محل أدب لا تخجل السيدة من السماع عنه في خدرها . . وليس كما يحدث في القرية المصرية والقصر الفارسي ، من مجون وخلاعة يخالفان شرائعنا المقدسة ، ويدنس أخلاق أمتنا . . اشتروا التذاكر وادخلوا هيا . . ادخلوا إلى هذا المكان الطاهر بربع دولار» .

لم يكمل دكتور كروزبي أسبوعاً واحداً ، فحضر خطيب آخر يدعى دكتور سبيرز طلب إحضار مجموعة من المؤدين والمؤديات بشكل دائم معه أمام بوابة المرمح ، قرب شباك التذاكر . كان يقول وهو يشير إليهم وهم يغنون «يا أم المنديل الصيني جنتيني» :

– «أيها القوم تعالوا واسمعوا ما يرتل هؤلاء البدو . . إنهم يرتلون (Nearer, my God, to thee) ، هؤلاء قوم أتقياء يعبدون الله وحده ، وهم يجتمعون كل صباح وكل مساء يمجدون الرب على

هذه الصورة . لدينا منهم مائتين وأربعة عشر رجلاً وامرأة وطفلاً ، وأربع وستين من أفضل الخيول العربية ، وتسعاً وعشرين جملاً وهجيناً ، وسبعة عشر جحشاً وأتاناً ، وسائر الحيوانات الأهلية الموجودة في الصحراء ، أتوا إلينا من الناصرة حيث ولد المسيح . . انظروا إلى هذه المرأة القادمة من بيت لحم اسمها مريم ، وابنها الذي في حجرها يدعى يسوع ، وهذا زوجها يدعى يوسف . . انظروا إلى هذا الثالوث المقدس . . انظروا إلى هؤلاء أتوا إلينا من جهة الطور حيث نزل الوحي على موسى ، وقوم منهم من شطوط طبريا ؛ حيث مشى يسوع على الماء ، وأولئك من ضفاف الأردن حيث كان يوحنا المعمدان يعمد المؤمنين ، وهؤلاء قوم جاؤوا من دمشق وأورشليم . . زوروا أرض الكتاب بربع دولار . . ربع دولار فقط!» .

طارت شهرة المرمح إلى الآفاق ، ولم يخل يوم من خبر أو إعلان في جريدة ، وتقاطر الناس إليه من كل حدب وصوب ، حتى أنه غطى في الأيام العشرة الأولى ، من الناحية النظرية على الأقل ، تكاليف الأبنية ومدرج الجمهور ، وبدأ يجني الأرباح . ولكن أرندل ، وقد لعبت برأسه نشوة النجاح ، تحفَّظ على النقود ، ومنع أعضاء اللجنة من الدخول إلى مكتبه ، بل وطلب من السيدة نيلسون مسؤولة قطع التذاكر ، ومستر بيكر مسؤول الأمن ، أن لا يسمحا لأي كان ، حتى خليل سركيس نفسه ، بالدخول لمشاهدة العرض من دون قطع تذكرة .

في اليوم نفسه حضر المهندس أصدقيان وأراد الدخول

كالعادة ، فاعترضه قاطع التذاكر وحاول منعه ، فدفع ثمن التذكرة ودخل غاضباً ، وحين رآه متعهد المشروبات سليمان مغبغب هرع إليه معتذراً ، وقدم له زجاجة بيرة ، وقبل أن يشرب منها شربة واحدة حضر شرطي واقتاد مغبغب إلى عربة التوقيف ، وحين تدخل أصدقيان وحاول الاعتراض ، أوقفه الشرطي أيضاً ، ونقلهما معاً إلى قسم الشرطة .

لم يستوعب أصدقيان ما يحصل ، حتى أخبره الشرطي بأنه حذر سليمان مغبغب مرات عدة من أنه سيقتاده إلى السجن إن باع البيرة من دون الرسم المقرر! ولكن أصدقيان ، وبعد أن أُطلق سراحه قال لراجي غاضباً :

– لا يخرج هذا الموضوع عن بشارة زلزل ، هو من رتب هذه المؤامرة ضدي .

قال راجي محاولاً التخفيف من غضب أصدقيان :

– نعم لدينا ملاحظات على الدكتور زلزل ، ولكن من غير المنطقي أن نلصق به أي تهمة . . لماذا لا تقول إنه أرندل؟

– لا ، بل هو زلزل ، أراد أن ينتقم مني لأنني دفعت كفالة أحد الفرسان البدو وأخرجته من السجن قبل أيام ، بعد أن اشتكى عليه وادعى أنه حاول طعنه بآلة حادة!

في صباح اليوم التالي ، صادف راجي الدكتور زلزل واقفاً قرب المدرج ، فوبخه بالفرنسية ، ولامه شديد اللوم على ما فعله مع أصدقيان ، فما كان منه إلاَّ أن انسحب من المكان ، وتوجه إلى

مكتب سليمان البستاني لإخباره بأن راجي أفندي أهانه على مرأى من الناس ، وأنه يطالب بمحاسبته .

ولكن البستاني كان يحمل لزلزل خبراً آخر ، إذ قدَّم له النقيب أحمد ثابت بك من اللجنة السلطانية ، وأنه يريد أن يستجوبه حول دوره في حادثة توقيف عضو اللجنة السلطانية آغوب أفندي أصدقيان .

غضب زلزل أشد الغضب وانسحب متجاهلاً النقيب ، وتوجه إلى المفوض العام للسلطنة إبراهيم حقي بك ، ليشرح له الموضوع ، ولكن النقيب رفع تقريراً لحقي بك بأن الدكتور زلزل أهانه بطريقة سافرة ، وهو ما يعد إهانة للهيئة الاعتبارية التي يمثلها .

تعقد الموضوع كثيراً ، بعد أن رفض زلزل الاعتذار للنقيب والقبول باستجوابه ، فقررت لجنة إدارة المرمح تجميد عضويته فيها ، فتوجه إلى المحكمة لرفع شكوى ضد الشركة ، يطالب فيها بأجوره وتعويضه عن الضرر الذي لحق به!

ولم يمض وقت حتى بدأ صوت أمين شكور يعلو لائماً خليل سركيس بقسوة على قراره «المتسرع» بتوقيع عقد لا فكاك منه مع أرندل ، وطالبه أمام أعضاء اللجنة بتصحيح هذا الخطأ إن استطاع ذلك ، فما كان من سركيس إلاَّ أن توجه إلى أرندل ، وحاول أن يفاوضه على الإفراج عن النقود التي يحتفظ بها ، غير أن «سليل اللورد» شكا من أنها لا تكفي لتسديد تكاليف البناء وأجور الموظفين ، فطالبه بكشوفاته المالية التي تبين المداخيل والمصروفات ،

لكنه رفض أن يتدخل أحد في عمله ، فهو مفوض بجميع الشؤون الإدارية والمالية ، بموجب العقد الموقع معه .

اكتأب سركيس ، واعتكف أياماً عدة في بيت أحد أقاربه من المهاجرين القدماء في شيكاغو ، وكان لقريبه صديق مشهور يدعى القاضي إيستن ، لديه شركة محاماة ، شرح له قضية سركيس ، وكيف تمرد أرندل عليه ، فطلب توكيلاً لكي يحصّل له حقوقه!

أثناء ذلك ؛ كان المرمح يواصل صعوده ، والأموال تتدفق على جيب أرندل ، والدائنون يقرعون الأبواب ، واللجنة تطلب من أرندل النقود لدفعها إلى مستحقيها ، وهو يمتنع ويماطل ، إلى أن ألقى أصحاب الديون الحجز على المرمح وخيوله .

كان الحاجزون : إدارة الشرطة لعدم دفع أجور رجال الأمن الذين انتدبتهم لتنظيم الدخول والخروج ، بناء على طلب أرندل ، والبنَّاء في «أرض البيسبول» ، وشركة النقل إلى ملعب «غارفيلد بارك» ، والجرائد التي نشرت الإعلانات ، وأنطون وردة ، وبشارة زلزل ، ويا للمفاجأة القاضي إيستن! الذي رفع دعوى احتيال ضد سركيس ، لأنه وكَّله في وقت كان توكيل المحامي جيمس شومان لايزال سارياً ، وطالبه بألف دولار كتعويض عن الضرر الذي تعرض له .

وكان من نتيجة ذلك أن توقفت العروض ووضعت الحكومة مراقباً قضائياً لمنع خروج أي حيوان من المرمح ، وصادرت إدارة الشرطة جوادين مقابل أجور رجال الأمن .

تعقدت الأمور بشكل كبير ، وبدا أن إيجاد حل لها أصبح من رابع المستحيلات ، لا سيما أن موجودات الشركة ، بما فيها الخيول ، لا تكفي لتسديد ربع الديون التي يطالب بها الحاجزون ، فكيف الخلاص من مشكلة الفرسان ، والممثلين ، والمستخدمين ، والتعهدات الموثقة بإرجاعهم إلى أوطانهم مكرمين؟

حاول نجيب سرسق الانسحاب من الشركة ، فاشتعل الخلاف بينه وبين خليل سركيس الذي قال له :

- إنك تحاول أن تغادر المركب وهو يغرق ، وهذا السلوك لا يليق بالرجال المحترمين .

كان سركيس ومن معه يطالبون سرسق ببقية مال الشركة لفك المحجوز ، وهو يقول إن مال الشركة قد نضب ، وأن عليهم أن يصادقوا على دفاتره .

قالوا له :

- أقرضنا مبلغاً لكي نسدد شيئاً من أموال الدائنين ، حتى نستطيع إعادة المرمح إلى العمل .

فرد عليهم :

- لابد أن تعترفوا بالبنود الواردة في كشوفاتي لأنها مصاريف تخص الشركة ، وبعد ذلك نبحث في موضوع القرض .

لم يتفق الجانبان على حل للمشكلة ، ووصلت الأخبار إلى الأستانة ، فطلب «المابين الهمايوني» من المفوض حقي بك حل الموضوع بأسرع وقت ، وأن يضع أولوية إعادة العاملين إلى ديارهم ،

بعد أن يحصلوا على أجورهم كاملة ، وكان هذا الطلب أشبه بتهديد فهمه الجميع!

اجتمعت لجنة المرمح في بيت حقي بك ، في السابع من حزيران ، وأسندت إدارة العمل إلى سليمان البستاني ليفعل ما يراه مناسباً ، فكتبوا صك تفويض بذلك وقع عليه الجميع ، وصادق عليه حقي بك ، وبموجب ذلك دفع نجيب سرسق ثلاثمائة دولار ، هي كل ما تبقى في ذمته ، وانسحب من العمل يتبعه نخلة بسترس ، وتوجها إلى نيويورك .

أما سليمان البستاني فقرر أن يكون مشرفاً ، وأن يترك أمور الإدارة التنفيذية بيد خليل سركيس وراجي صيقلي ، وأن تتم المصارفات ، من قبض أموال ودفع ديون ، عن طريق المحامي شومان الذي نصح باستدانة خمسة آلاف دولار من أحد أكبر مرابي شيكاغو يدعى مستر برن ، ليفك الحجز ويدفع أجور العاملين .

بعد أيام رأى مستر برن أن طريقة إدارة المرمح لن تعيد له نقوده ؛ فطلب من سليمان البستاني أن يفوضه بإدارة العمل ، لكي يتمكن من جمع الدين ، ودفع المستحقات ، وتبرئة ذمة الشركة من جميع التزاماتها ، ففوضه بموجب صك موثق في المحكمة ، أما أرندل ، فلم يكن هناك أي سبيل للخلاص منه سوى بدفع أجوره كاملة حتى نهاية شهر تشرين الأول ، ففاوضه البستاني على البقاء بصفة مستشار مقابل تخفيض معاشه إلى النصف ، فوافق وهو يوزع ابتسامات الشماتة على الجميع!

حرارة نجمة

منذ أن احترق الدبران لم يعد حسن هو حسن . . كان الجميع يعرفون طبعه الميال إلى الانزواء وتحاشي الناس ، ولكنهم بعد الحريق لاحظوا أنه بات رجلاً آخر يكادون ألا يعرفوه ، فنظراته ساهمة دائماً ، كأنه يحدق في عالم آخر غير مرئي ، وكثيراً ما كانوا يسمعونه ينطق بكلمات غير مفهومة ، وحين يخرج من المهجع يقضي جلَّ وقته مع نجمة قابضاً على رسنها وهو يمشيها حول الملعب ، ويحدثها أحاديث لاتنتهي .

تركه أهل المرمح في حاله وهم يرددون عبارات الإشفاق عليه ، وكان مقبل يحضر له بين الفينة والأخرى بعض الطعام ، فيأكل لقمة أو لقمتين تبقيانه على قيد الحياة .

كانت حالة حسن قد تفاقمت في اليوم التالي لمأساة الحريق ، بعد أن حضر بشارة زلزل إلى الملعب ، واقتاده بعيداً عن المخيم ، وصاح به :

- أين الأوراق يا حسن؟

- أنت تعرف أنها سرقت مني .

- هذا الكلام قله لغيري ، أنا أعرف تماماً أنك أخفيتها أو

بعتها لأحدهم ، وأريدك أن تقول الآن من هو؟

– قلت لك لقد سرقت مني ولا أعلم عنها شيئاً .

– واصل الإنكار يا حسن ، ولكنك ستدفع ثمناً باهظاً على عنادك .

يومها ؛ قال زلزل كلمته الأخيرة وهو يمضي باتجاه بوابة المرمح ، وما إن بارح المكان حتى ظهر رجلان ملثمان من وراء السور ، وانهالا على حسن ضرباً ، وهما يشتمان ويهددان ويتوعدان ، وفي اليوم التالي حضر زلزل إلى المرمح واحتل إحدى الخيام ، وبدأ بالتحقيق مع المستخدمين والفرسان البدو فرداً فرداً حول السرقات التي زعم أنها حصلت أثناء الحريق ، وحين أدخل حسن إلى الخيمة وآثار الضرب بادية عليه ، قال له :

– هل قررت الاعتراف أم إنك ماض في طريق العناد؟

التزم حسن الصمت ولم يجب .

– الأوراق يا حسن ، فقط قل أين الأوراق ولك مني مكافأة كبيرة تزيد على المبلغ الذي دفعوه لك .

لم يجب أيضاً ، بل امتنع عن الكلام مع الجميع لأكثر من شهر ، حتى خطرت له فكرة تزويج نجمة من عبيران جواد صديقه مقبل ، بعد أن لاحظ بطء استجابتها للدواء العشبي الذي كان يطعمه لها .

في البداية ؛ لم تتقبل الأمر ، وكانت تشيح بوجهها وتكشر عن أسنانها كلما حاول عبيران الاقتراب منها ، فقرر أن يطعمهما

معاً من خلطة الشعير المحمص بالزبدة العربية ، وكم كانت مفاجأة جميلة لحسن حين رآها قد تقبلت الأمر ولم تعد تنفر من وجود رأسه إلى جانب رأسها ، وبعد ذلك اصطحبهما خارج الإصطبل ومشَّاهما على مرجة العشب مرات عدة ، وفي إحدى المرات تركهما لوحدهما برهة من الزمن قبل أن يعود ليصطحبهما إلى الإسطبل مجدداً ، وشيئاً فشيئاً بدأت حرارة نجمة بالانخفاض ، لتعتريها نفحة من النشاط المفاجئ ، فعادت تهرول على المرج بخيلاء ، يتبعها عُبيران محاولاً اللحاق بها ، وهي تسرع كلما رأته يقترب أكثر ، وهو يتبعها كلما ابتعدت عنه ، إلى أن غابا عن الأنظار خلف الأبنية الخشبية .

كان منظر نجمة ، وهي تسترد عافيتها ، قد أعاد إلى حسن شيئاً من الأمل الذي فقده بعد احتراق الدبران ، فعاد يكلم أهل المرمح ، ويتناول معهم الطعام ، بل وافق على أن يلتقط له مصور المعرض بعض الصور ، وهو يمسك رسن نجمة العائدة إلى الحياة والنشاط من جديد!

بعد أيام قليلة ظهرت صورة حسن على غلاف واحدة من نشرات المعرض المصورة ، فلفتت نظر البروفيسور بوتنام الذي كان يعمل على تصنيف كتاب مصور عن الأعراق البشرية في شارع «ميدواي بليزانس» .

سأل البروفيسور مساعده الدكتور بنيامين غيلمان وهو يريه الصورة بشيء من الغضب :

– لماذا لم أرها مع المجموعة التي قدمتموها لي؟

تأمل غيلمان الصورة ملياً وقال :

– هؤلاء ليسوا في «ميدواي بليزانس» إنهم فريق المرمح العثماني في «غارفيلد بارك» .

قال بوتنام متبرماً :

– وما الفرق؟ أليسوا من ضمن أنشطة المعرض الترفيهية؟

– نعم ، ولكن ، أنت علمتنا ، حضرة البروفيسور ، أن نلتزم بالمعايير الأكاديمية ، والعنوان يتحدث عن «ميدواي بليزانس» .

قال بوتنام وهو يلقي النشرة على طاولته ، ويجلس بتثاقل على كرسيه محاولاً استعادة هدوئه :

– كان حرياً بك أن تصورهم ، فسوف يعرضون قريباً في «ميدواي» .

ردَّ غيلمان بإصرار :

– أنا ملتزم منهجياً بما حددته لي حضرة البروفيسور .

قال بوتنام بتأفف :

– ليتك التزمت بما طلبته منك حقاً!

– ماذا تقصد حضرة البروفيسور؟

– لا شيء! فقط التسجيلات الصوتية التي كلفتك بإنجازها لموسيقى الشعوب الأصلية لم تكن أصلية! طلبت منك التركيز على النغمات البدائية فسجلت لي أوركسترا عثمانية ، ومارش مصري ، أنا لا أريد موسيقى هجينة عبثت بها ذائقة مخرَّبة ، ما

أردته تلك الأصوات النابعة من الأعماق السحيقة!

– ولكنني سجلت فعلاً السلم الموسيقي الأصلي ، وأصوات الأوتار العشوائية .

– سلم موسيقي يا دكتور غيلمان! أقول لك أنغاماً بدائية أصلية ، وتقول لي سلم موسيقي ، هل تعرف كم قطعت البشرية من مراحل حتى وصلت إلى السلم الموسيقي؟! لقد خيبت أملي يا غيلمان .

أمسك بوتنام النشرة الدعائية من جديد وقال وهو يتأمل صورة حسن :

– انظر إلى ابتسامته ، يا لروعتها! هذه الابتسامة تختصر كتب الأنثروبولوجيا كلها ، انظر كم يبدو سعيداً ، والأهم من كل ما يمكن أن يقال في وصف هذه الابتسامة ؛ أنها للا شيء!

ردَّ غيلمان وقد بدت عليه ملامح الضيق :

– وكيف عرفت ، حضرة البروفيسور ، أنه يبتسم للا شيء؟

رسم بوتنام على وجهه ابتسامة مصطنعة ، وحك لحيته ثلاثاً من دون أن يرفع بصره عن الصورة وقال بهدوء أكاديمي :

– ألا تلاحظ معي دكتور غيلمان أن الكآبة سمة حضارتنا ، والسعادة سمة الحياة البدائية؟

قال غيلمان بجدية :

– أرجو أن تشرح لي فكرتك سيدي البروفيسور ، فأنا ، ومن وجهة نظر أكاديمية بحتة ، لم أجد أي رابط بين البدائية والسعادة ،

بل ربما على العكس ؛ أعتقد أن العصور البدائية كانت عصوراً مظلمة من الشقاء والتعاسة .

قطب بوتنام حاجبيه وتأمل وجه تلميذه وهو يقول بشيء من التوبيخ :

- أنت تكرر كلام اللاهوتيين ، دكتور غيلمان ، حين تقول إن العصور القديمة كانت كلها شقاء ، هذه ليست وجهة نظر أكاديمية ، بل هي مقولة لاهوتية تؤدي إلى نتيجة تقول إن ذلك استدعى إرسال الأنبياء . . أنت تكرر عبارات اللاهوتيين من دون أن تعي أبعادها . . دكتور غيلمان هل قرأت ترجمة رواية «آلام فيرتر» لغوتة؟

- أجل قرأتها .

- هل تستطيع أن تحدد لي ما الذي يبعث الحزن في نفس فيرتر بالضبط؟

التزم غيلمان الصمت ، فهو يعرف أن أستاذه لا ينتظر منه جواباً!

- إن ما يثير الحزن في نفس فيرتر ، دكتور غيلمان ، هو تغير العالم من حوله ، لقد حمل ذاتاً تبحث عن الاستقرار والسكينة في هذا العالم الموغل في أنانيته وانتهازيته وجشعه ، لقد اصطدمت ذات فيرتر التي تجسد خلاصة قيم وأخلاق الحضارة الأوروبية ، بوصفها مثلاً أعلى ، مع الخواء الذي انطوت عليه ذوات الكثير من الناس الذين يحكمهم الرياء والتصنع والادعاء بتمثل القيم العصرية ، هذا

هو سبب حزن وآلام فيرتر دكتور غيلمان . . ترى هل يدرك ابن جزيرة ساندويش ، أو ساكن بولونيزيا ، أو ساكن الصحراء العربية ذاته وعلاقتها بالموضوع حتى يشعر بالحزن النبيل؟!

في اليوم التالي توجه غليمان إلى «غارفيلد بارك» واصطحب معه مترجماً وثلاثة مصورين ، وبعد عناء طويل التقط صوراً لمن كان في الملعب من الفرسان ، والممثلين ، والممثلات ، بأزيائهم التقليدية وهم سعداء مبتسمين ، ووثقها في كراسه ، وقبل انصرافه تذكر الصورة التي أثارت كل هذا الجدل مع البروفيسور ، فعرضها على أهل المرمح ، وسأل عن صاحبها؟

أثار السؤال دهشة الجميع ، إذ لم يكن حسن من الفرسان أو الممثلين المتصفين بالوسامة والعنفوان الذي يغري المصورين عادة ، ولم يكن صاحب حضور يستحق اهتمام هذا الرجل الأميركي الذي يأتمر بأمره كل هذا الفريق ، فقالوا له :

– هو رجل مسكين يمكث في الإصطبل مع فرسه التي عاودتها الحرارة من جديد!

عرضوا عليه أن يصور خالد العبدالله الذي حضر لتوه من المحكمة ، فهو فارس بدوي وسيم يرتدي زياً جميلاً يعجب المصورين ، ولكن إصرار غيلمان على تصوير حسن ؛ جعل الفرسان البدو يهرعون إلى الإصطبل ليأتوا به محمولاً على الأكتاف رغماً عنه ، فزاد ذلك في غضبه ، ولكنه امتثل تحت التهديد ، وارتضى أن يلتقطوا له خمس صور ، ولكن على مضض!

أرض المعرض

أبلغ جيمس شومان من تبقى من أعضاء لجنة الإدارة ، المجتمعين في مكتب سليمان البستاني ، بأن مستر برن قرر نقل «المرمح الحميدي» إلى أرض المعرض ، وبالتحديد إلى قطعة الأرض الواقعة في أول شارع «ميدواي بليزانس» ، مقابل قرية داهومي الإفريقية ، وأنه سوف يدفع أجرها سلفاً ويسجله ديناً على الشركة ، مضافاً إليه فائدة تبلغ خمسة في المئة ، وفي ختام حديثه قال لهم مبشراً :

– بإمكانكم أن تقولوا إن أيام المرمح بدأت منذ اليوم .

قال راجي متهكماً :

– كم مرة علينا أن نبدأ من نقطة الصفر سيد شومان . . هذه البداية الثالثة .

قال شومان ببرود :

– ولكن هذه المرة سترون بأنفسكم الفرق ، لأن وجود المرمح في المعرض يعني نجاحاً مضموناً لا شك فيه .

اكتفى خليل سركيس بهز رأسه هزات خفيفة وبطيئة ، وانشغل عبد الله صائغ بتأمل قبعات الأميركيين الذين يملأون

السوق العثماني ، فيما غرق أمين شكور بقراءة جريدة كانت بين يديه ؛ من دون أن يعلق بكلمة واحدة .

خلال يومين فقط ؛ هيأ مستر برن قطعة الأرض لاستقبال المرمح ، فبنى إسطبلاً للخيول وغرفة كبيرة للملابس ، ومخيماً للعاملين ، ومدرجاً للمشاهدين ، وسجل ذلك كله ديناً على الشركة ، وحدد موعد الافتتاح يوم عيد الأمة الأميركية في الرابع من تموز ، مع حملة إعلانية كبرى ، وتخفيض على سعر تذكرة الدخول إلى عشرة سنتات .

وفي يوم الافتتاح ، اكتظ المدرج بالمشاهدين ، وكان في مقدمة الحاضرين إبراهيم حقي بك مفوض السلطنة العام ، وقسطنطين بك سرسق قنصل السلطنة في شيكاغو ، وممثلٌ عن عمدة المدينة كارتر هاريسون ، والبروفيسور بوتنام مدير قسم الأنثروبولوجيا ، وسول بلوم مدير الامتيازات .

وفي بداية الاحتفال ؛ حمل الممثلون الأعلام الأميركية والعثمانية ، وطافوا بها حول الميدان ، واستعرض الفرسان مهاراتهم ، فتميز الفارس الدمشقي أحمد الخضري الذي نجح في حمل علمين ؛ أحدهما عثماني والآخر أميركي وهو واقف على ظهر جواد يعدو بأقصى سرعته . . وأذهل المشاهدين حين استل بندقيته عن ظهره ونجح في إصابة ثلاثة أهداف متتالية ، وجواده يعدو ولم ينقص من سرعته قيد أنملة .

والتقط مقبل وهو على ظهر عبيران كأس ماء ممتلئ من أرض

الملعب ، وقدمه لإحدى الممثلات الواقفات التي عرضته للحاضرين ، فرأوه ممتلئاً لم ينقص منه شيء ، واستعرض فرسان بعلبك والناصرة مهارات جماعية ، لا تقل إدهاشاً عما قدمه الخضري ومقبل ، انتزعت تصفيقاً حاراً من المشاهدين .

وفي نهاية الحفل قلَّد ممثل عمدة شيكاغو الفارس الدمشقي وسام المهرجان ، وسط تصفيق الجميع وامتعاض بوتنام الذي انسحب خارجاً من دون أن يلتفت خلفه هارباً من نظرات وابتسامات سول بلوم الشامتة!

كان المرمح في هذه الأيام دائم الاكتظاظ ، وحضر لمشاهدته زوار من ولايات أخرى ، بعد أن قرأوا عنه في الصحف الأميركية ، وشاهدوا إعلاناته التي انتشرت في كل مكان .

كان مستر برن يسابق الزمن لاستعادة نقوده التي دفعها على المرمح ، وفوقها الأرباح التي توقعها ، فأيام المعرض تجري بسرعة نحو النهاية ، والشائعات التي تحدثت عن تمديده شهراً آخر ؛ ثبت أنها غير صحيحة ، ولذلك أمر مستر برن بأن يُقدم في اليوم الواحد أربعة عروض ، وإن اقتضت الضرورة خمسة!

أرهقت العروض الكثيرة الفرسان ، وأتعبت الخيل ، بل خرج بعضها من اللعب مصاباً يحتاج إلى أوقات طويلة من الراحة ، وكانت هنالك إصابات شديدة أدت في نهاية الأمر إلى التضحية بخمسة خيول بدل علاجها الذي لن يفيد . وخلال شهر لم يرتح فريق المرمح أكثر من أربعة أيام ، ولم يقبض أي عامل فيه سنتاً

واحداً ، فتسللت الكآبة إلى الجميع ، وباتت العروض تفتقر إلى الحماس الذي ميَّز الأيام الأولى ، وبدأ البعض بالتمارض والتهرب من العمل تحت أي ذريعة كانت .

شعر الجمهور بفتور همة الفرسان ، وإلغاء الكثير من العروض ، فخف الإقبال كثيراً . . حاول مستر برن تعويض ذلك بتخفيض ثمن التذاكر ، والترويج لفقرات المهارة بصور علقت في مختلف أنحاء المدينة وعلى عربات النقل . . وحين حاول إجبار الفرسان على تقديم هذه الفقرات المرهقة في ختام العروض ، امتنعوا وشكوا أمرهم إلى راجي وطلبوا منه حلاً .

توجه راجي بصحبة المهندس أصدقيان إلى مستر برن وطالباه بدفع أجور العاملين ، فتذرع بأنه سيفعل ذلك بعد أن يستكمل استخلاص ديونه ، عرضا عليه أن يسدد جزءاً من هذه الأجور ، لكنه واصل التذرع بالديون ، وبعد أخذ ورد ، قال راجي لأهل المرمح في اجتماع عام :

- عليكم بالإضراب عن العمل حتى يدفع لكم أجوركم كاملة .

أضرب المرمح ، وامتنع فرسانه وممثلوه على العمل ، وأبلغوا مستر برن بمطالبهم مكتوبة ، وهي : أن يوفي لهم أجورهم كاملة ، منذ اليوم الأول وحتى الآن ، بما في ذلك ثمن وجبات الطعام التي أكلوها على حسابهم ، فقرر مستر برن عدم الاستجابة ، بذريعة عدم مسؤوليته عن الفترة السابقة ، ولم يكتف بذلك ، بل أحضر

الشرطة لإجبار المضربين على العمل ، ولكنهم ، وبتشجيع من راجي وأصدقيان لم يخضعوا للتهديد والوعيد ، وواصلوا الإضراب .

لجأ مستر برن إلى خليل سركيس محاولاً استمالته إلى صفه بعد أن أطلعه المحامي شومان على الخلاف المستحكم بينه وبين راجي صيقلي ، فخاطبه بلقب الرئيس ، وقطع على نفسه الوعود بأن يبدأ بالتسديد لصندوق الشركة فور انتهاء الديون ، وطلب منه التدخل لفك الإضراب .

داعبت هذه اللهجة المتضرعة غرور سركيس ، وأعادت له الكثير من الثقة بنفسه ؛ بعد شهرين من اللوم والتبكيت ، فتوجه إلى المرمح ، وخطب بالمضربين متمنياً عليهم الرجوع إلى العمل ، لأن ذلك السبيل وحده الكفيل لإنقاذ الشركة ، وليس الإضراب ، ووعدهم بدفع مستحقاتهم فور وصول النقود إلى صندوق الشركة .

وكان راجي وقتها في المرمح مع المضربين ، فردَّ بصوته الجهوري على خطاب سركيس ، ودعا المضربين إلى الثبات ، لأن مستر برن سيرضخ في النهاية ، فلا حل أمامه سوى الاستجابة ، ثم وجه كلامه لسركيس قائلاً :

– إذا لم يحصلوا على أجورهم الآن فلن يستطيعوا الحصول عليها في آخر المعرض ، وسنضطر أنا وأنت وباقي أعضاء الشركة لدفعها في بيروت ؛ بناء على التعهدات التي وقعناها .

نجح الإضراب ، واضطر مستر برن للرضوخ ، ودفع للمضربين ،

بناء على تسوية توسط فيها شومان وسليمان البستاني ، جزءاً من أجورهم ووعدهم بتسديد الباقي قبل نهاية المعرض ، فعاد المرمح للعمل ، ولكن بإقبال أقل من الفترة الذهبية في شهر تموز ، وكان السبب هذه المرة افتتاح بوفالو بل مرمحه في موقع خلف القرية التركية ، وسط شارع الترفيه ، فلم ينتظر مستر برن طويلاً ، إذ رتب جولة في ولاية كندا الإنكليزية ، وكنساس .

أضواء المدينة البيضاء

عاودت الحرارة نجمة من جديد ؛ بعد أن دب فيها النشاط وتعافت تماماً خلال الشهر الأخير ، وحين رآها رئيس الفرسان سليم جاويش متعبة قال لحسن ابق معها ، فهذا خير لها ولك ولنا .

سافر الجميع فجر الرابع عشر من آب إلى كندا ، وبقي حسن وثلاثة من السُيَّاس ، مع سبعة خيول مصابة في أرض المعرض .

في أحد الأيام ، وبينما كان حسن الرماح ينظر إلى رقصات الداهوميين الأفارقة حول نار مشتعلة ، في الجهة المقابلة ، وقف إلى جانبه رجل يرتدي قبعة أميركية ، وقال له بلهجة بيروتية :

- كيف حالك يا حسن .

التفت إلى الرجل الغريب وردَّ باستنكار :

- من أين تعرفني؟!

قال الرجل وهو يبتسم بمكر :

- ومن لا يعرف حسن الرماح ، لقد انتشرت صورك في جميع الجرائد الأميركية ، وأصبحت من المشاهير!

- ماذا تريد؟

– لا شيء أريد فقط أن أصورك عدة صور وأدفع لك دولارين ، ما رأيك؟

لم يرتح حسن للرجل ؛ فقال وهو يهم بالمغادرة :

– لا أريد .

قال الرجل وهو يمسك كتف حسن برفق :

– لن يأخذ منك الأمر أكثر من ساعة ، وسأزيد لك المبلغ إلى ثلاث دولارات ، هيا يا رجل لا وقت لدينا ، سوف أعيدك إلى هنا بعد ساعة ، هيا بنا هيا .

ارتبك حسن وهو يرى الرجل يدس في جيب سترته الدولارات والسنتات ، ثم يقوده من يده إلى عربة بحصانين تقف قرب بوابة المرمح ، ويركبه فيها ، ويقول له عبارات مشجعة ، وهو لا يجد متسعاً للرفض أو التفكير بالأمر .

سارت العربة قليلاً ثم انعطفت نحو اليسار ووقفت أمام باب القصر الفارسي . . هبط الرجل منها وطلب من حسن أن يتبعه ، فدخل إلى مبنى معتم ، وسار في سرداب طويل حتى بلغ غرفة ذات إضاءة شحيحة يجلس فيها ثلاثة رجال ، استطاع أن يميز بينهم بصعوبة بالغة : أنطون وردة ، رئيس الفرسان السابق ، والدكتور بشارة زلزل ، أما الرجل الثالث فلم يتأكد تماماً من شخصيته ، ولكنه متأكد أنه أميركي كان يراه بكثرة في «أرض البيسبول» بصحبة رئاسة المرمح!

حاول التراجع إلى الخلف بحثاً عن منفذ للفرار ، ولكن الرجل

الواقف وراءه دفعه إلى داخل الغرفة مرة ثانية .

قال بشارة زلزل وهو يرسم على وجهه ابتسامة عريضة لا تخلو من السخرية :

- يا هلا بالشيخ حسن . . اشتقنا لك يا رجل أين أنت؟

أشاح حسن بوجهه ولم يجب .

نهض أنطون وردة ومد يده مصافحاً :

- لاتخف يا حسن ، أنت تعرفني كم أحبك ولا أحد هنا يريد بك شراً .

مد حسن له يده وصافحه وهو يقول :

- ولماذا جلبتموني إلى هنا ما دمتم لا تريدون شراً ، لماذا لم تأتوا إلى المرمح لنتكلم هناك إن كان ثمة شيء نتكلم حوله .

أخذ أنطون وردة حسن من يده وأجلسه على كرسي ، فقال بشارة زلزل :

- إياك أن تظن بأنني ضربتك في المرة الماضية ، أقسم لك بأنني فوجئت حين علمت بالأمر .

تجاهل حسن كلامه وتوجه إلى أنطون وردة :

- سامحتكم إن كنتم ضربتموني ، وأنا لا أريد منكم شيئاً ، فقط اتركوني أعود .

قال أنطون وردة :

- من المؤكد أننا سنتركك تعود ؛ ولكن نريد منك طلباً صغيراً ، إن لبيته دفعنا لك ألف دولار أميركي .

قال بشارة زلزل مستنكراً :

– أي ألف دولار يا رجل ، بل سندفع ألفي دولار ، لأن حسن غالي علينا .

التزم حسن الصمت ، فتابع الدكتور زلزل :

– نحن نعلم أنك أخفيت أوراق الأنساب ، ولو كان أي واحد منَّا مكانك لأخفاها ، فهي ثروة حقيقية إن قايض عليها ، وأنت تعرف أن هذه الخيول لا تساوي شيئاً من دون الأوراق . . ولذلك أرجو منك أن لا تواصل الإنكار ولتخبرنا بمكانها ، ونحن سنتدبر الأمر ، وسندفع لك حصتك حين نقبض الثمن من الشخص الذي يريد الشراء .

وأشار بيده إلى الرجل الصامت الذي لم يبد على وجهه أي تعبير!

قال حسن :

– أقسم لكم بأن شخصين لا أعرفهما ضرباني وأخذا الأوراق .

قال بشارة زلزل وهو يرسم على وجهه ابتسامة هازئة :

– من الذي ضربك يا حسن؟ هل ترانا سذج حتى نصدق هذه القصة . . لم يسمع أحد بالقصة ، ولم ير أحد جروحك ، ولم تتقدم بشكوى للشرطة . . كيف تريدنا أن نصدق ، إن صدقك الصيقلي وسركيس ؛ فنحن لا تنطلي علينا هذه الألاعيب المكشوفة . . أحضر الأوراق ولك ثلاثة آلاف دولار . . لا أريد أن

أسمع منك جواباً الآن ، اذهب وشاور نفسك وأنا بانتظارك قبل عودة جماعة المرمح .

قال أنطون وردة متصنعاً لهجة ودودة :

- انتبه يا حسن ، لم يبق كثيراً على عودتهم ، وحين يعودون ستتعقد الأمور ، وقد لا تتمكن من قبض الثمن .

نهض حسن وهو يقول :

- أريد أن أذهب .

قال زلزل :

- بإمكانك الانصراف ، ولكن فكر جيداً لن تجد من يشتري منك الأوراق غيرنا .

خرج حسن من القصر الفارسي ، فوجد نفسه ، على حين غرة ، وسط مجموعة من النساء المتبرجات المسرعات إلى ولوج الباب الذي خرج منه ، وقبل أن يستعيد الاتجاه الصحيح ؛ فوجئ بالأنوار التي ظهرت أمامه ، وباكتظاظ الناس .

سمع صوت أذان بعيد ، فتوجه نحوه ؛ وإذا به مسجد القرية التركية الذي صلى فيه قبل ثلاثة شهور . . أدى صلاة المغرب مع مجموعة من الأتراك والمصريين والسودانيين والجزائريين ، وتجول في السوق العثماني بتمهل كبير .

للحظة ؛ ظن نفسه في سوق الحميدية الدمشقي . . استعاد لحظات جميلة قضاها فيه منذ زمن بعيد . . تذكر شراب عرق السوس اللذيذ ، وقطعة الهريسة الغارقة بالسمن والقطر ، وشيش الكباب

الملفوف برغيف خبز مشروح مع البقدونس ومخلل اللفت الأحمر .

خرج من السوق باحثاً عن شيء يأكله ، فلمح من بعيد مطعماً يجلس فيه بعض الأشخاص وهم يتناولون طعامهم ، تناول شيش كباب في خبز أميركي منفوش ، وشرب كأس ليمون بارد ، ودفع ثمنهما من القطع المعدنية الصغيرة التي كانت في جيبه .

قبل أن يبلغ الشارع ؛ فوجئ بمنظر شخص سمين ذو لحية طويلة ، يضرب على الطبل وهو يبربر بلغة غريبة ، كان الناس يتجمعون حوله ثم يهرعون مسرعين للدخول إلى مبنى مجاور . . دخل خلفهم إلى المبنى فلم يعترضه أحد ، سار في ممر طويل فوجد في نهايته مسرحاً كبيراً فيه رجال ونساء يرقصون ويغنون .

جلس في الصف الأخير وبدأ يتابع المشهد من بعيد ، فرأى مجموعة من البدو يسطون على خيمة رجل يوسعونه ضرباً ويخطفون ابنته وزوجته ، وبعد قليل ؛ يحضر شاب ويفك وثاق الرجل ويخرج متوعداً المجرمين ، ثم يعود بالمجرمين مكبلين ، وبالفتاة وأمها حرتين ، فتقام الأفراح ، ويعقد قران الشاب ، ويا للمفارقة ، اسمه حسن ، على عروسه .

خرج من المسرح مذهولاً مما رأى ، ظن للوهلة الأولى أنه شاهد قصة حقيقية ، وفكر في أن يهرع إلى الرجل المكبل ليفك وثاقه ، ولكنه تنبه إلى أن المشاهدين لم يتحركوا من أماكنهم ، فعدل عن قراره .

وقف برهة يتأمل الشارع المكتظ . . في الجهة اليسرى دولاب

كبير جداً ، مضاء بأنوار قوية ، يحمل الناس إلى الأعلى بطريقة عجز عن فهمها ، وإلى أقصى اليمين مبنى ضخم ومقابله المبنى الذي رأى فيه زلزل ووردة .

لم يعرف أي اتجاه يسلك للعودة إلى المرمح ، فكر في أن يسأل رجلاً مسناً يجلس على مقعد إلى جانب الشارع وهو يدخن الغليون الطويل ، لكنه عدل عن الأمر وقرر التوجه نحو اليمين . . سار بين الحشود مسافة طويلة ، فوصل إلى فسحة كبيرة تقطعها أنهار وجسور ، وتتوزع فيها أبنية بيضاء مرصعة بالمصابيح .

راقه المنظر كثيراً ، فوقف على أحد الجسور يراقب تراقص الأضواء على صفحة الماء . . أمعن النظر ، فتهيأ له أن الضوء ينبعث من قعر البحيرة ، أذهلته فكرة انبعاث الضوء من الماء . . أراد أن يتأكد من شكوكه ؛ فمط جسده خارج دربزين الجسر وهو يحدق بالماء ، وإذ بشرطي يمسكه من كتفه ويقتاده بعيداً وهو يبربر بغضب . . حاول التملص ، لكن الشرطي أصر على اقتياده إلى مكان ما ، فصاح به :

- اتركني اتركني ، ماذا تريد؟

لكن الشرطي واصل بربراته الغاضبة ومحاولات اقتياده ، فتجمع الناس ، وبدأ اللغط يكبر ، وفجأة ؛ ومن حيث لا يحتسب ؛ ظهرت من بين الجموع المرأة الجميلة ذات الظل الطويل ذاتها . . تلك التي اهتمَّت لأمره على ظهر السفينة في صبيحة اليوم الثاني من السفر!

بدأت المرأة بمجادلة الشرطي ، وانضمت لها ثلاث نساء أخريات ، فما كان من الشرطي إلا أن ترك حسن بعد تردد وحيرة ، ومضى في حال سبيله وهو يبرر . . التفتت المرأة إلى حسن وقالت له بلهجة بيروتية :

- ما قصتك مع الماء ، يا رجل؟

قال لها وقلبه يرتعش في صدره مثل عصفور صغير مسه البرد :

- لا شيء؟

تبسمت مندهشة :

- يقول الشرطي إنه قبض عليك وأنت تحاول أن تلقي بنفسك في البحيرة .

- أيضاً؟!

- نعم ، ماذا كنت تفعل؟

- صدقيني لم أكن أفعل شيئاً ، كنت أنظر إلى الماء فقط .

- أيضاً؟! إذن ، لا تنظر إلى الماء مجدداً في هذه البلاد ، حين ترى الماء أشح بنظرك عنه وامض في طريقك .

ضحكا قليلاً قبل أن يسألها عن سبيل العودة إلى المرمح ، فقالت له :

- عد من حيث أتيت ، وتابع سيرك إلى نهاية الشارع وستجد نفسك بين أهلك وأحبابك .

تبسم حسن وهو يتأملها تمضي مع رفيقاتها ، وحين ابتعدت

قليلاً حانت منها التفاتة سريعة ، ثم توقفت ونظرت إليه باندهاش ، كان لايزال واقفاً لم يبارح مكانه وهو ينظر إليها مبتسماً ، فلوحت له بيدها مودعة وقد افترت شفتيها عن ضحكة خجولة ، قبل أن تمضي في طريقها وتختفي بين الجموع التي تملأ الشوارع والردهات .

عودة ناقصة

وصل المرمح إلى أرض المعرض فجر الرابع من تشرين الأول بعد شهر من الغياب ، أعادت الجولة الأمل للجميع ؛ إدارة ، وفرساناً وممثلين ، ومستخدمين ، كان الإقبال منقطع النظير في كندا ، وجيداً في كنساس .

تقديرات راجي لصافي الدخل تحوم حول العشرين ألف دولار ، وتقديرات سركيس وشكور وصائغ تقترب من الثلاثين ألف ، فقد كان الرجال الثلاثة يسجلون في دفاتر صغيرة أعداد الحاضرين كل يوم .

لم يصرِّح مستر برن إلا بتسعة آلاف دولار اقتطعها كاملة ، ولم يدفع منها أي سنت لصندوق الشركة . حاول سركيس تذكيره بوعوده ، فأخرج أوراقاً ممهورة بالأختام ؛ قال إنها تثبت مبلغ التسعة آلاف ، وهي لا تكفي لتسديد نصف ديونه . وأنه لا يعرف الطريقة التي سيُحصِّل من خلالها باقي الديون . . واجهه سركيس بتقديراته المسجلة في دفتر صغير عرضه له ؛ وأراد أن يحاججه به ، فضحك برن بسخرية من دون أن ينظر إلى الدفتر وهو يقول :

– لاشك في أنك تهذي سيد سركيس ، دفترك لا قيمة له ،

كل الأموال التي دخلت موثقة بدفاتر قانونية ، ومدعمة بأرقام التذاكر التي بيعت ، سيد سركيس هذه أميركا!

انسحب سركيس مكتئباً وسافر إلى أحد أقربائه في فيلادلفيا ، وعاد أمين شكور وعبد الله صائغ إلى بيروت لتسوية الأمور مع الحكومة وتهيئة المساهمين لتلقي صدمة الخسارة ، وبقي راجي وحيداً يصارع لإعادة أهل المرمح إلى الديار .

عرض مستر برن على راجي أن يعود الفريق للعمل فيما تبقى من أيام المعرض ، على أن يكون نصف الدخل لصالح العاملين ، والنصف الآخر لتسديد إيجار الأرض ، فرفضوا جميعهم ، كانت معنوياتهم قد انهارت إلى الحضيض بعد أن سمعوا عن تمنُّع مستر برن عن دفع أي سنت للصندوق ، لقد فقدوا الأمل من أي أميركي .

ولم يتوقف الأمر عند ذلك ؛ فقد ظهرت دعاوى حجز جديدة ، أبطالها : صاحب ملعب «بيسبول غراوند» لضمان التعويض على تخريب عشب الملعب بسنابك الخيل ، والمحامي شومان للحصول على مبلغ ستمائة دولار منصوص عليها في العقد ولم يقبضها ، والدكتور بشارة زلزل بصفته طبيب المرمح الذي لم يتقاض سنتاً واحداً عن عمله ، وأنطون وردة الذي ادعى أنه تشرد بعد فصله من العمل ، واستدان ثلاثمائة دولار لتأمين معيشته وأجور عودته ، وإدارة المعرض التي كانت تطالب بأجور قطعة الأرض لعشرة أسابيع .

كانت المقايضة الأخيرة التي طرحها المحامي شومان على راجي تتلخص ؛ باحتفاظ مستر برن بالخيول ومعدات المرمح ؛ مقابل تسوية الأمر مع الحاجزين وإعادة العاملين إلى ديارهم .

قال راجي ساخراً :

- شكراً لكم لأنكم لم تعرضونا للبيع في المزاد .

رد شومان ببرود :

- ألغيت العبودية في بلادنا قبل ثلاثين عاماً سيد صيقلي!

صُدم راجي بالجواب الصاعق ، ففغر فمه ، وهو يحاول أن يقنع نفسه بأن ضحكة مباغتة لابد أن تتلو تلك المزحة السمجة ، ولكن شومان غادر المكان محتفظاً بملامح الجدية الباردة التي كان يتحدث بها طوال الوقت .

عينت محكمة شيكاغو حارساً قضائياً ، وقُسِّم فريق المرمح على أربع مجموعات ، ضمت الأولى ؛ فرسان بعلبك والناصرة ونابلس ، والثانية ؛ المتزوجين والنساء ، والثالثة ؛ السياس ومتعهدي الطعام والشراب ، والرابعة ؛ مجموعة دمشق وأصحاب الخيول المعارة ، وكانت الخطة تسفير إحدى هذه المجموعات مطلع كل أسبوع .

سارت الأمور وفق الخطة المرسومة ، ولم يمتنع عن العودة إلا خمسة فرسان ، قيل إن العقيد بوفالو بل اتفق معهم للعمل في مرمحه! وحين اقترب موعد سفر المجموعة الرابعة ، في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأول ، استوعب أصحاب الخيول البدو

ماجرى ، وأدركوا متأخرين بأنهم سيفقدون خيولهم إلى الأبد من دون أدنى مقابل ، فأعلنوا امتناعهم عن السفر حتى تدفع لهم أثمانها ، ولم يفلح تدخل اللجنة السلطانية ، ولا التهديد ولا الوعيد ، حتى أقسم لهم راجي بأنه سوف يدفع لهم أثمان الخيول من جيبه فور الوصول إلى البلاد ، فطأطأوا رؤوسهم خجلاً ، وانصرفوا لحزم حقائبهم وهم يتحسرون على جيادهم التي أخذت سنوات ثمينة من أعمارهم .

في صبيحة اليوم التالي حضرت إلى المرمح خمس عربات كبيرة لنقل الخيول الثمانية والعشرين إلى إصطبل المحكمة ، وحين دخل الموظفون الأميركيون الخمسة بصحبة المترجم السوري وعدد من الفرسان إلى إصطبل المرمح ؛ كان حسن يطعم نجمة ، فتجاهل وجودهم ، ظناً منه أن الأمر لا يعنيه ، ولكن حين فحصوا نجمة ، وسألوه عن اسمها وعمرها ووضعوا عليها شرائط وقلادة في رقبتها ، ارتاب من الأمر ، وسأل المترجم عن الموضوع ، ولكن المترجم تجاهله وامتنع عن الكلام معه ، فتبع مقبل الذي انصرف مكفهراً إلى المهجع ليحزم حقائبه .

قال مقبل من دون أن يلتفت :

- هل حزمت أغراضك يا حسن؟

قال حسن ، وكأنه لم يسمع شيئاً :

- وإلى أين سيأخذون نجمة؟

التفت مقبل إليه وقال بغضب :

– انس نجمة وفكر بنفسك ، وحين نصل إلى البلاد لكل حادث حديث .

غادر حسن المهجع مسرعاً وهو يصيح بأعلى صوته :

– لن أعود من دون نجمة .

ركض إلى الإصطبل ؛ فوجده خاوياً ، نظر نحو البوابة الخارجية ، فرأى آخر العربات تغادر وهي تتأرجح بتثاقل كبير ، وكان آخر ما رآه منها رأس نجمة التي بدت وكأنها تبحث عنه .

غامت الدنيا أمام عينيه وكاد أن يسقط أرضاً ، ولكنه استجمع قوته وركض خلفها حتى أدركها ، فتشبث بعارضة العربة الخلفية ، وصعد بصعوبة إليها واختفى بين قوائم الخيول ، وبعد لحظات خرج مقبل يبحث عنه ؛ فلم يجده . ركض إلى خارج البوابة فلمح العربات من بعيد تنعطف يميناً وتختفي في شارع فرعي .

شارع المحكمة

حين كانت العربات تشق طريقها إلى المحكمة بين الحشود التي ملأت شوارع المدينة ، وقف حسن الرماح وأطل برأسه من بين رؤوس الخيل ، ليرى مصدر الضجة الكبرى والصراخ الذي يصم الآذان ، لم يفهم سبب هياج الناس وركضهم ، ولكنه أدرك أن مصيبة كبرى حدثت ، فعاد إلى الجلوس بين قوائم نجمة بانتظار الوصول إلى مكان ما .

كان سبب الهياج الذي لم يفهمه حسن ؛ انتشار خبر مقتل عمدة شيكاغو السير كارتر هاريسون في منزله بعدة طلقات نارية ، قبل حفل اختتام المعرض بيومين ، وقبل حفل زفافه بأسبوع واحد! وكان القاتل رجلاً غريب الأطوار ادعى ، حين سلم نفسه للشرطة ، أنه طلب من العمدة أن يجد له عملاً لقاء جهوده في الحملة الانتخابية ، وأن العمدة وعده بذلك ولم يلب وعده!

وصلت العربات بصعوبة بالغة إلى إصطبل المحكمة ، وأُنزلت منها الخيول التي جُمعت إلى بعضها البعض ، مرتبة بحسب الأرقام التي عُلقت برقابها .

نزل حسن بهدوء من العربة الأخيرة وسط ذهول الموظفين

واستنكارهم ، سألوه ماذا تفعل هنا؟ فأشار إلى نجمة . . قالوا له كيف صعدت إلى العربة؟ فأشار مرة أخرى إليها .

كان المترجم السوري قد غادر في شارع «ميدواي بليزانس» ، فنظروا في وجوه بعضهم البعض حائرين بأمر هذا الرجل الذي لا يجدون وسيلة للتفاهم معه . . كان الصراخ الآتي من الشوارع المجاورة يزيد في عصبيتهم وضيقهم من هذا الطارئ الغريب الذي ظهر في وقت حرج . . تبرع أحدهم ودفعه برفق خارج مبنى المحكمة وهو يقول له : إذهب من هنا إذهب ، فحاول التملص والركض باتجاه نجمة ، غير أنهم تكاثروا عليه وأغلقوا الباب الخارجي وتنفسوا الصعداء ، وحين أصبح وحيداً خارج الباب أبعده أحد الحراس وهو يشير إلى الجهة المقابلة من الشارع .

حار في أمره ، فقال للحارس إن فرسه نجمة في الداخل ، وهي مريضة ويريد أن يرعاها ويكون إلى جانبها .

ضاق الحارس به ذرعاً ، فأمسك بيده واقتاده إلى الجهة الأخرى من الشارع الذي ملأته الحشود .

لم يفهم ما قاله الحارس وهو يغادره عائداً إلى مكانه ، ولكنه فهم أن وقوفه في المكان ليس ممنوعاً ، فجلس سانداً ظهره إلى جدار مبنى شاهق بانتظار شيء ما يأتي من البوابة المقابلة .

كانت وجهة الحشود الضخمة مبنى الـ«سيتي هول» ، المجاور لمبنى المحكمة ، ومع غروب الشمس أصبح حسن وسط الأمواج البشرية التي كانت تهتف مطالبة بتسلم القاتل لشنقه أمام بيت

العمدة القتيل ، وبين الحين والأخر كان أحد الخطباء ينهض من بين الحشود الغاضبة مطالباً الناس بالهدوء والعودة إلى بيوتهم ، وترك العدالة تأخذ مجراها ، ولكن لا حياة لمن تنادي .

خرج نائب العمدة ، وخطب بالمحتشدين وأكد لهم أن الولايات المتحدة هي بلد العدالة ، وأن القاتل سيحاسب ، وتمنى عليهم أن يعودوا إلى بيوتهم ؛ فلم يمتثل أحد ، وواصلوا الهتاف حتى بعد غروب الشمس .

لم يعرف حسن متى نام ولا كيف ، لكنه استيقظ وهو يشعر بوطأه البرد ، وحلكة الليل دامسة . . انتبه لوجود مجموعات كثيرة من الرجال الملتحين الشعث ، اتخذوا من الأرض مجالساً ، وتحلقوا حول صناديق معدنية تشتعل فيها النار .

اقترب من إحدى الحلقات ليتدفأ ، فسحبه رجل من يده وأجلسه إلى جانبه ، وقدم له قطعة خبز جافة ، أخذها بحذر وهو يهز رأسه ممتناً للرجل الضخم ذو اللحية النحاسية الطويلة والشعر الأشعث الطويل .

كان الجوع الشديد قد أنهك أمعاءه على غير عادته ، ربما بسبب انقطاعه منذ يومين عن القهوة المرة التي كانت تغنيه عن الطعام ، فبدأ يلتهم الخبز الجاف بسرعة كبيرة .

غص بلقمة نشبت في بلعومه ، حاول ابتلاعها بصعوبة ، فنشبت أكثر . . بحث عن شيء يشربه ، فلم يجد . . انتبه الرجل الضخم إليه ؛ فنهض إلى حلقة مجاورة وأحضر وعاءً فيه سائل

ساخن ؛ شربه بسرعة من دون أن يتبين ماهو بالضبط ، وحين ابتلع اللقمة وارتاح لاحظ أن الرجال لا يتكلمون ولا ينظرون إلى بعضهم البعض ، ولا يفعلون شيئاً طوال الوقت إلاَّ تأمل اللهب المتراقص في حلكة الظلام .

مع ارتفاع شمس الصباح عادت الحشود للتجمع في المكان ، وبدأ صراخها يعلو من جديد ، ولكنه لاحظ اليوم أن الكثير من الناس الذين مروا من أمامه كانوا يرفعون صوراً . . لم يشغل باله كثيراً بالحشود خشية أن يسهو عن باب المحكمة ، فلربما ظهرت السيدة البيروتية بظلها الطويل من حيث لا يحتسب ، أو ربما خرجت عربة تحمل نجمة ، فيتعلق بها ويمضي إلى مكان آخر غير هذا الشارع البارد العاري ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل!

في ذلك المساء أتى الرجل الملتحي الضخم وأعطاه قطعه خبز ووعاءً متسخاً فيه حساء ساخن يشبه حساء الليلة الماضية ، ثم مضى في طريقه ليعود بعد قليل ، ويلقي عليه معطفاً سميكاً قذراً كان في أمسِّ الحاجة إليه ، فتبسم للرجل ممتناً ، والتحف به غير عابئ بشيء غير البرد .

في الأيام التالية ؛ لم تنقطع الحشود عن التجمع منذ الصباح وحتى المساء ، ولكنها كانت تتضاءل يوماً إثر يوم حتى اختفت بعد أكثر من أسبوعين ، وبدأت الحياة في شوارع المدينة تعود إلى وتيرتها المعتادة .

كانت وطأة البرد تزداد ليلة بعد أخرى ، فلم يعد يحصي

الأيام أو الأسابيع ، بل أصبح كل شيء مرتبطاً بموعد قدوم الرجل الضخم الملتحي . . في الصباح الباكر حاملاً قطعة الخبز ووعاء الحساء الساخن ، وعند المساء ؛ حين كان يأخذه من يده إلى صندوق النار الذي يتحلق حوله الرجال الصامتون .

في إحدى الأمسيات شديدة البرودة ، وبعد أن أطفأت الريح القوية جذوة النار في الصندوق المعدني ، بدأت الغيوم الرمادية تتكاثف بسرعة وتطلق بروقها ورعودها المرعبة ، فأمسكه الرجل الضخم الملتحي من يده وسحبه معه إلى باب البناء القريب المغلق المظلل بحافة من القرميد . . كانت الشوارع والأرصفة قد كسيت خلال دقائق قليلة بطبقة سميكة من الثلج .

تجمع الرجال الملتحون تحت المظلة القرميدية وهم يراقبون بصمت تكدس الثلوج أمامهم ، ومع اشتداد العاصفة التحموا ببعضهم البعض ، وغدوا كأنهم كتلة واحدة من القماش الداكن المجلل بالبياض!

غير بعيد عنهم إلى جهة الشمال ، كان البروفيسور بوتنام يراقب سقوط الثلج من نافذة مكتبه في مبنى إدارة المعرض ، وهو يفكر بالوسيلة الفضلى للوصول إلى محطة القطارات في صبيحة الغد . . كان من المفترض أن يغادر إلى النُّزُل ، بعد أن ينهي أعماله ، لولا الثلوج المفاجئة . . نصحه الحوذي بالبقاء في المكتب ريثما تهدأ العاصفة ، وقال إنه سيبقى هو أيضاً مع الحارس حتى الصباح .

في أول الليل ؛ شغل نفسه بمراقبة العصفور الوحيد من عصافير داروين . . الذي بقي على قيد الحياة ، ولكنه سرعان ما سئم الأمر ، فقد حفظ كل انحناءة من انحناءات منقاره العريض ، وبات يعرف كل ريشة من ريشه الرمادي الداكن ، وكل حركة من حركات عيونه .

سأل نفسه : لماذا لا ينهي كتاب «الأعراق البشرية في ميدواي بليزانس» قبل السفر إلى نيويورك؟ لا شك أن مشاغل وظيفته الجديدة في متحف التاريخ الطبيعي ستأخذ جلَّ وقته ، وقد تمنعه من إنجاز الكتاب سريعاً ، كما وعد الناشر .

صنف الصور أولاً بحسب السلسلة الأولى التي وضعها لشارع الترفيه ، أي من الأفارقة إلى الأوروبيين ، ولكنه لاحظ أن ذلك سيبدو مملاً ، فمن غير المعقول أن يتابع القارئ ثلاثين صورة لأشخاص داكني البشرة إلى أن يصل إلى الوجوه الأوروبية اللطيفة . . خطر له أن يقسم الكتاب إلى وجوه نسائية وأخرى رجالية ، وأيضاً لاحظ أنه سيفتقد إلى عنصر التوازن . .

قرر أخيراً أن يبدأ بـ«شعب الرب» ، بصورة موسى البعيد ، هذا العجوز اليهودي القادم من القسطنطينية ، والذي كتب عنه مارك توين ذات يوم وشرح سبب تسميته بهذا الاسم الغريب حين كان يعمل دليلاً سياحياً ، من دون أن يقدم أي خدمة لزبونه سوى مرافقته من بعيد!

أعجبته كثيراً فكرة «شعب الرب» ، فالأميركيون البسطاء يحبون هذا الكلام ، ووضع صورة «موسى البعيد» في مقدمة

الكتاب سيغري الكثيرين باقتنائه ، وقد لاحظ وجود متجر في أحد أسواق شيكاغو اسمه «موسى البعيد للسجاد الفارسي» ، حتى قبل قدوم موسى البعيد نفسه إلى المعرض بأربع سنوات .

لم يفهم سر الانبهار الأميركي بموسى البعيد هذا . . لقد زار «القرية التركية» ورآه يبيع في محل للتحف الشرقية ، وكان شيخاً عادياً لا يختلف عن أي شيخ تركي آخر ، كما قال لمدير مكتبة الكونغرس الأميركي حين طلب منه صوراً للأعراق البشرية ، كي تنحت تماثيل لأصحابها وتوضع على جدران مبنى المكتبة!

ولكن المدير غضب منه أيما غضب ، وأرسل مصوراً التقط لموسى البعيد لقطات عدة ، وصار يشيع في الأوساط الأكاديمية أن البروفيسور بوتنام لا يحب اليهود! وها قد أتت الفرصة لكي يبرئ نفسه من هذه التهمة الباطلة ، ويضع موسى البعيد ، «ممثل العرق اليهودي» في مقدمة كتابه!

أما موضوع الصورة الأخيرة ، فقد شغله كثيراً ، هل يختمه بوجه إفريقي أم أوروبي؟ أعياه التردد ، فقرر أن يترك الأمر لفنيي المطبعة ، فلديهم رؤيتهم المبنية على الخبرة الطويلة .

غلبه النعاس فغط في نوم عميق على أريكة المكتب رغم قصرها ، ولكنه استيقظ بعد أن قرصه البرد قليلاً مع بزوغ خيوط الفجر الأولى . . نهض إلى النافذة . . وجد الثلج قد توقف ، فهرع إلى طاولة المكتب لينهي المقدمة بسرعة ، بعد أن أصبحت فرص السفر أكبر .

التزم في المقدمة بسلسلته التي وضعها في بداية المعرض قبل أن تخربها «الطغمة المالية» ، إذ بدأ بالأفارقة وانتهى بالأوروبيين ، وحسم أمره بشأن العنوان الذي أخذ وقتاً طويلاً من تفكيره ، فخط بقلمه المذهَّب : «وجوه الأنواع البشرية من ميدواي بليزانس» ، كان الأمر أشبه بالإلهام!

قال وهو يتأمل العبارة بإعجاب :

- نعم هي أنواع بشرية وليست مجرد أعراق .

ضم الصور والأوراق إلى بعضها في ملف محكم الإغلاق ، ثم دخل إلى الحمام لتجديد يومه ، وبعد قليل خرج نشيطاً سعيداً بما أنجز ، فوجد الحوذي قد أحضر له فنجان قهوة كبير ؛ احتساه ببطء .

ارتسمت على محياه ابتسامة غامضة وهو يتأمل العشرات من عمال البلدية المنهمكين بتعزيل الطريق من الثلوج .

نظر إلى ساعة الجدار . كانت تشير إلى السابعة صباحاً . . عليه أن يتحرك إلى المطبعة قبل أن يحضر أمتعته من النُّزُل القريب .

بدأ بجمع كتبه وأوراقه في صندوق صغير حمله الحوذي بيد ، وحمل باليد الأخرى قفص «عصفور داروين» الأخير ، وسبقه إلى العربة .

نظر في أرجاء مكتبه نظرة وداع أخيرة ، وخرج بعد أن ارتدى معطفه السميك وقبعته السوداء الطويلة ، لم يكن ثمة أحد في المبنى غير عمال النظافة . . مكتب العقيد ديفيز لا يزال مغلقاً . .

كان يود إلقاء تحية الوداع عليه . . نظر إلى ساعته ، كانت تشير إلى السابعة وعشر دقائق . . سار في الردهة الطويلة حتى وصل إلى الباب ، فركب العربة بنشاط وقال للحوذي :

- إلى المطبعة أولاً .

هز الحوذي رأسه موافقاً ، وانعطف عند تقاطع شارع كلارك مع شارع راندولف باتجاه اليسار إلى طريق المحكمة ، كان الطريق مغلقاً بعربة إسعاف حكومية متوقفة لسبب ما . . شغل نفسه بتقليب صور الكتاب ، ومراجعة تعليقاته عليها ، استعرض صور السودانيين ، والنوبيين ، والأمير حمزة ، وشقيقه علي ، وصوراً أخرى لمجموعة من البدو العرب السعداء . . استوقفته صورة حسن الرماح ، تأملها جيداً فاكفهر وجهه :

- كيف مرت علي هذه الصورة وفيها كل هذا الحزن؟

كانت إضاءة الغرفة في الليلة الماضية شحيحة ، ولم تظهر ظلال الصورة الكئيبة ، فاستبعدها من المجموعة وقال متبرماً :

- غيلمان هذا ميؤوس منه ، لن يكون عالماً ذا شأن في أي يوم من الأيام مهما حاول ذلك .

قال الحوذي :

هل قلت شيئاً يا سيدي؟

رد بتأفف :

- لاشيء ، أكلّم العصفور .

أعاد باقي الصور إلى الملف ، ونظر من النافذة فرأى أناساً

متجمعين حول فريق من عمال البلدية ينتشلون من تحت ركام الثلج جثث رجال ملتحين تجمدوا في عاصفة الليلة الماضية المفاجئ .

سأل الحوذي ، وهو يتفحص العصفور الذي بدأ يرتجف في قفصه :

- كم بقي على موعد قطار نيويورك؟

- ثلاث ساعات سيدي البروفيسور .

قال وقد علت وجهه تقطيبة خفيفة :

- لدينا متسع من الوقت . . بعد المطبعة إلى النُّزُل ، ثم إلى محطة القطار .

هوامش

(١) سُجلت الفرس نجمة رقم واحد ، والفحل عبيران رقم اثنين في السجل الرسمي الأميركي لسلالات الخيول العربية ، بعد معركة قضائية طويلة كان شاهد الإثبات فيها المهندس آغوب أصدقيان الذي اعتمدت محكمة شيكاغو سجله ، وعدّته وثيقة رسمية لإثبات نسب سبعة من أصل ثمانية وعشرين رأساً من خيول المرمح الحميدي . وقد اشتُريت نجمة في مزاد «تاترسالز» في الرابع من كانون الثاني عام ١٨٩٤ لرجل من نيويورك يدعى مستر رامسديل بأربعمائة وخمسين دولاراً فقط ، بعد أن كانت معروضة في البداية بعشرة آلاف دولار ، وسبب بيعها بهذا السعر الزهيد ، إشاعة قالت إنها غير قادرة على الإنجاب بسبب حرارتها المرتفعة ، ولكن سجل السلالات يبين أن باسمها ثلاث عشرة ولادة ؛ كانت آخرها في العام ١٩١٣ ، وفي المزاد المذكور ذهبت معظم خيول المرمح الحميدي ، بما فيها عبيران ، إلى صناعي من بوسطن ماساشوسيتس يدعى بيتر برادلي ؛ ما لبث أن أصبح خلال سنوات قليلة أكبر مالك للخيول العربية في الولايات المتحدة قاطبة .

(٢) لم يعرف أحد أبداً من الذي سرق لفائف أنساب الخيول من صندوق حسن ، وما كانت غايته من إخفائها ، حتى بعد مضي مائه وخمسة وعشرين عاماً على ذلك الحدث ، ولكن المحامي جيمس شومان كتب في مذكراته المحفوظة في مكتبة شيكاغو ، والتي لم تجد إلى الآن ناشراً يتبناها ، أنه سمع من جورج أرندل تلميحاً بأنه أحرق أوراقاً صادرها من المرمح (؟) ، تثبت تورط آغوب أصدقيان بالتآمر عليه مع أحد البدو! كما ذكر شومان في مذكراته أن أرندل اعترف له في جلسة شراب بأنه قبض من العقيد بوفالو بل ثلاثة آلاف دولار أميركي لقاء تدمير المرمح

العثماني . .وكتب شومان أن أرندل قال له إن من دمر المرمح أصحابه بخلافاتهم الغبية ، ولذلك قبل برشوة بوفالو بل التي لم تقدم ولم تؤخر ، فالمرمح مدمر سواء أخذ الرشوة أم رفضها!

(٣) ضم العقيد بوفالو بل إلى فريقه خمسة من فرسان المرمح الحميدي ، وفرقة من لاعبي الخفة المصريين والجزائريين ، وأصبحت فقرة الفرسان العرب إحدى ثوابت برنامجه المنوّع في السنوات اللاحقة ، إلى جانب الهنود الحمر ، وفرسان القوزاق ، وحين أراد الفرسان السوريون العودة إلى ديارهم بعد أربع سنوات من العمل المضني معه ، رفض منحهم تعويضاتهم ، وهو ما اضطرهم لأن يتقدموا بشكوى إلى القضاء لم يكسبوها ، فلجأوا إلى المحامي شومان الذي كان الوسيط في عملهم مع بوفالو بل ، لكنه أنكرهم ، إلى أن قامت السفارة العثمانية في واشنطن بدفع تذاكر عودتهم ، ولكن بوفالو بل لم يلغ فقرة الفرسان العرب من برنامجه نظراً للإقبال الكبير عليها ، فأحضر فرساناً من الريف المغربي ، لا يقلون مهارة عن الفرسان السوريين .

(٤) بقيت هنا كوراني في الولايات المتحدة ثلاث سنوات ، تطوف من ولاية إلى ولاية ، تلقي المحاضرات عن المرأة الشرقية ، وتناقش الأميركيات بالحقوق السياسية التي كانت مثار جدل في المجتمع النسوي آنذاك ، وقد أطلقت عليها صحيفة «شيكاغو تريبيون» لقب جورج إليوت السورية ، والغريب أنها بعد عامين توصلت إلى القناعة التي حاولت زينب فواز أن تقنعها بها في العام ١٨٩٢ ، حول أهلية المرأة للمشاركة السياسية الكاملة ، كما عبرت عن خيبة أملها من المجتمع الأميركي ، الذي كانت تظنه أكثر مثالية مما رأت . وفي أحد فنادق فيلادلفيا التقطت عدوى السل ، فساءت حالتها الصحية ، وعادت مريضة إلى بلدتها كفر شيما في جبل لبنان ، وكان آخر

ظهور لها يوم السادس والعشرين من أيار عام ١٨٩٦ ، حين ألقت محاضرة بعنوان «التمدن الحديث وتأثيره في الشرق» ، وفي العام ١٨٩٨ أعلنت الصحف الأميركية وفاتها في مسقط رأسها ، بعد معاناة طويلة من المرض الذي اختطفها في ريعان الصبا .

(٥) نشر خليل سركيس أخبار زيارته إلى أوروبا وأميركا خلال العام ١٨٩٣ في كتاب أسماه «رحلة صاحب اللسان» ، ولكنه حذف منها أي وقائع أو أسماء تتعلق بالمرمح الحميدي ، واستعاض عن ذلك بوصف مفصل لمدينة نيويورك ، ومعروضات المدينة البيضاء ، ويلاحظ قارئ هذا الكتاب الذي طبع في نهاية العام ١٨٩٣ وجود فراغات مكان الأسماء المحذوفة ، وهي أسماء أعضاء لجنة المرمح ، كما يدل سياق النص ، ورغم وعود سركيس الكثيرة لقرائه بأنه سينشر الملابسات التي أدت إلى دمار المرمح ، وتكبده الخسارة الفادحة ، إلا أنه لم ينشر شيئاً حول ذلك أبداً ، وبعد سنوات طويلة ذكر أحد أحفاده نقلاً عن والده أن جده كان يتقع ويكتئب حين يُذكِّره أحد ما بتلك التجربة ، وثمة شكوك بأن الفالج الذي أصيب به بعد رحلة شيكاغو بسنوات طويلة ، كان بسبب تذكره أيام المرمح العصيبة .

(٦) ذكر قسطندي صيقلي في مذكراته التي كتبها بعد هجرته إلى الولايات المتحدة ، وبقيت مخطوطة حتى الآن ، أنه اقترح على شقيقه راجي في العام ١٩٠٤ أن يسعى للحصول على امتياز استثمار ينابيع الحمة في جنوب الجولان سياحياً ، عن طريق صديقه عزت باشا العابد الذي أصبح كاتباً ثانياً للسلطان عبد الحميد . . ولكن محاولة اغتيال السلطان وهو خارج من مسجد يلدز في العام ١٩٠٥ ، وما تلاها من احتجابه واكتئابه وتعاظم هواجسه ، أحبطت المشروع ، فسافر إلى القاهرة ، وأسس مجلة هزلية بعنوان «المؤنس» لم تعمر طويلاً بسبب قلة الاشتراكات . .

وعندما انقلب الاتحاديون على السلطان ؛ عاد إلى عكا في العام ١٩٠٨ ورشح نفسه لانتخابات مجلس المبعوثان عن المدينة وقضائها ، ولكنه خسر بسبب ميوله «الحميدية الارتجاعية» أمام الشيخ أسعد الشقيري ، العضو النشيط في جمعية الاتحاد والترقي ، ولم يطل به الوقت بعد ذلك ؛ إذ سرعان ما اعترته كآبة مفاجئة أدت إلى تراجع صحته ووفاته في العام ١٩١٠ .

عصافير داروين تيسير خلف

أدرك راجي أنّ المبنى ديرٌ قديمٌ مهجورٌ على اسم القدّيس الجنديّ سيرجيوس، من أيّام أحد ملوك الغساسنة، فصلّب قبل أن يلج البوّابة المعقودة؛ وفي الداخل كانت النباتات البرّيّة تغطّي فسحة الدير، وثمّة أعمدة محطّمة تتناثر قرب قاعدة تمثال بازلتيّ عليها صورة أربعة جياد تجرّ عربةً يركبها رجل تحيط برأسه هالة من أشعّة الشمس. كان رسم الجياد لافتًا في دقّته وخصوصًا رؤوسها المشرئبّة .. على جدار صومعة الراهب في الجهة المقابلة للتمثال، لفت نظره درجٌ صاعد إلى الأعلى تنبثق درجاته من الجدار من دون دعاماتٍ ظاهرة .. هندسة الدرج الغريبة أنسته الخيول ومعرض شيكاغو. صعد الدرجة الأولى بحذر شديد. كانت متينةً وثابتة بشكل لافت، ثمّ صعد الثانية فالثالثة .. إلى أن وصل إلى السطح. كان المنظر من الأعلى ساحرًا بجماله، فقد أعطته الشمس المائلة تدرّجًا في الألوان يشبه لوحات الفنّانين الإيطاليّين. في الخلف غابة سنديان تغطّي منحدر الوادي، وأمامه انبسط سهلٌ صغيرٌ ينتهي بمنحدرٍ سحيق، وفي الأفق تدرّجات رماديّة وزرقاء لجبال بعيدة.

نظر من فوق إلى فسحة الدير فوجد حسن الرمّاح باسمًا وهو يقبض على رسنين لجواد أدهم وفرس شهباء أخذا لبّه من النظرة الأولى.

من الرواية